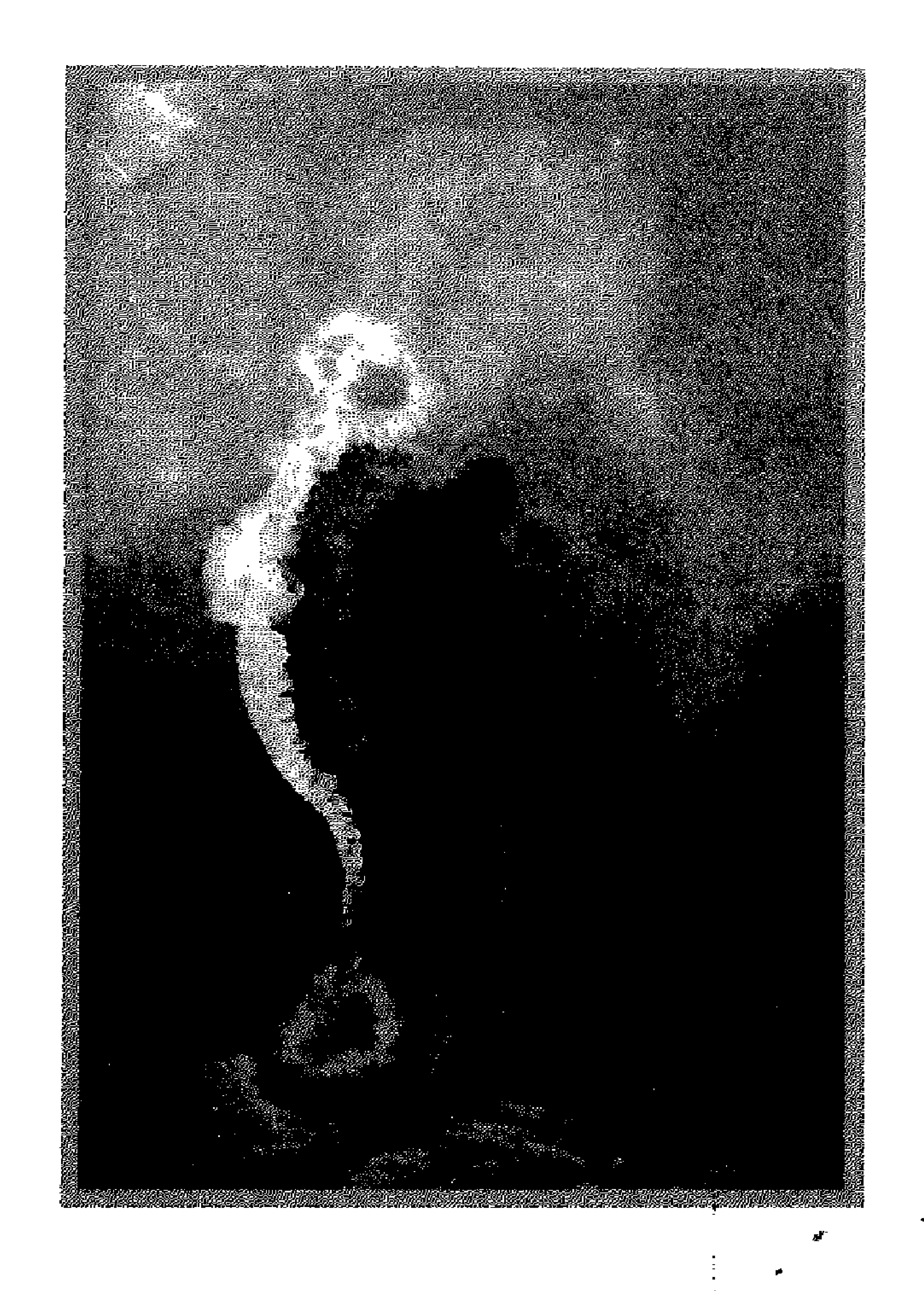
خديجة صبار

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة



أفريقيا الشرق

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة

المؤلف ـ الأستاذة خديجة صبار
عنوان الكتاب

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة

رقم الإيداع القانوني 1145 / 98
ردمك 9 - 111 - 25 - ISBN 9981

أفريقيا الشرق ـ المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف 259504 - 259813 ـ فاكس 440080

أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان

ص. ب. 3176 - 11

خديجة صبار

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة

أفريقيا الشرق

الإهـــــداء

إلى روح جدي

الذي سافر مبكرا

وبقيت صورة حلقاته الفكرية

موشومة في ذاكرتي

منذ الطفولة

مقدمة

المتأمل للتراث الذي ورثناه عن أسلافنا الذين نحن امتداد طبيعي لهم، بدءا من تخوم العصر الجاهلي في رحاب الصحراء، حيث البنية العربية رغم قساوتها مهد الحب والفروسية والكرم والإقبال على متع الحياة، بجانب الرقة والدماثة... وفي رحلة الزمان والمكان عبر التاريخ، قبل الإسلام وبعده، يقف على نماذج لايمكن تجاهلها لنساء قويات بارزات الحجة والبيان، إيجابيات في الحياة الخاصة والعامة منتجات فكريا واقتصاديا ورحما... لهن نصيب في صنع الحضارة التي لم تكن في مرحلة من مراحلها متعلقة بالذكور وكن قوة مؤثرة في حياة الشعوب الأكثر استعدادا لقبول أدوارهن. وبفضل هذه الشعوب تمكنا من الوقوف على اللواتي عرفن بالرأي والنفوذ، وتولين الملك والمناصب القيادية، وقبضن على زمام السياسة، وتعاطين شؤون الإدارة...وأخريات جمعن بين شجاعة الجنان وفصاحة اللسان من شواعر وزواجر وكواهن... رموز بمثابة شهادة لعشرات مثلهن حبستهن أسوار الحريم وطوتهن دهاليز قصور الملوك والخلفاء في المدن العربية... وإن حظين بعناية المهتمين ففي عالم الحب أو الشهوة أو أدب العلاقة.

فهل المرأة الزعيمة، الحاكمة الثائرة، المناضلة الباحثة، تنتمي للتاريخ الحديث ؟ وإذا كان الجواب بالنفي فلماذا لم تتحدد بعد على الخريطة كشخص له كيان... ؟ رغم أن علاقتها بالعمل السياسي والأدبي والاجتماعي عرفت قبل الإسلام وبعده ؟ !

* فالأنباط كانوا لايتحرجون في إشراك نسائهم في الحكم وأنجبت تدمر " زنوبيا" أو " الزباء " و هي أعظم ملكة عربية عرفها التاريخ.

* وتربعت بلقيس على عرش سبا في عصر نبي الله سليمان، وحكمت بالشكل الديمقراطي الحديث! وملكت أخريات في اليمن وكندة : نجد ضمن ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات مابين سنة 169 ق. م و 6 م . وفي كندة خمس ملكات منهن العمردة بنت الأعشى وماوية الغسانية التي حكمت فلسطين وسيناء[1] وتولت ماء السماء بنت عوف الملك وإليها ينسب ملوك الحيرة.

ومنهن من تولت مناصب الكهنة مثل عفيراء الكاهنة الحميرية، وزبرّاء أمة بني رئام وظريفة التي ينسبون إليها التكهن بسيل العرم لأنها رأت أن سد مأرب سيخرب، وعرافة الحجاز التي احتكم إليها عبد المطلب بن هاشم حين هم بذبح ابنه عبد الله فحكمت بفدائه، وكاهنة بني سعد "هذيم" وكاهنة بني مرة « الغيطلة» التي نسب إليها أنها تنبأت ببعثه النبي (ص)، ومنهن من لم تكتف بالكهانة بل ادعت النبوة «كسجاح» والتف حولها جمع كبير من الناس لدهائها.

وفي الصدر الأول للإسلام نجد أم سلمة أول مناضلة تقف أمام الرسول (ص) تدافع عن حقوق المرأة بالمفهوم الحديث، ونسيبة بنت كعب الأنصارية تحارب في غزوة أحد وتثبت مع القلة من الصحابة وتشهد معركة اليمامة وتعود منها مبتورة اليد حاملة إثنى عشر جرحا بين طعنة رمح ووخزة سهم وضربة سيف. وكانت أم قرفة الفزارية زوجة مالك بن حذيفة بن بدر تناوئ النبي (ص)، وانتصر عليها مالك بن حارثة وسجنها ثم أمر بقتلها، انتقاما منها لكونها هزمته في إحدى المعارك في السنة 6 للهجرة.

---

1 - د . أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ص 533 .

أما عائشة ـ امرأة الحقيقة ـ فقد تدخلت في السياسة العليا للبلاد، تعرضت لسياسة عثمان بالنقد، ولم تدخر جهدا في تحريض الناس وتأليبهم عليه . وخرجت تقود جيشا لمواجهة علي بن أبي طالب في معركة الجمل.

ـ وفاطمة الزهراء بنت محمد (ص) أم الحسن والحسين قامت بعمل سياسي من خلال الاتصالات التي أجرتها مع أشخاص من المهاجرين والأنصار تتعلق برئاسة الدولة بعد وفاة الرسول ، لصالح زوجها علي بن أبي طالب شعورا منها بظلم أهل البيت ... وعملها هذا يعتبر تعبئة انتخابية بالمفهوم المعاصر!

أما شهرزاد البطلة الأسطورية فهي أول قاصة غزلت حكاياتها وملأتها أحاسيس عميقة. حكايات رغم بساطتها، تكشف عن عبقرية واجتهاد وثراء ثقافي... تكلمت بجرأة وروت بكيفية أدهشت الرجال ونسجوا بعدها.

ومن النساء العربيات من تنقلن بين الشام ومصر للأخذ عن كبار المحدثين من العلماء شأن رجال العصر، وأجزن كبعض المحدثين والفقهاء... فابن حجر حصل على إجازتين من امرأتين شمس بنت ناصر الدين محمد، وخديجة بنت العماد الصالحية. وممن أجزن للسخاوي أمنة بنت الشمس ورجب ابنة الشهاب، وأم هانى ابنة التقي محمد[2]، وكثيرات غيرهن شكلن نماذج من التراث الأنثوي النضالي العربي.. لكن مؤرخي العرب القدماء حرصوا كما تقول الدكتورة عائشة بنت الشاطئ على وضع المرأة ومنجزاتها وآثارها في منطقة الظل، والسبب في ذلك هو أن حركة الجمع والتدوين التي بدأت في العصر الأموي وبلغت أوجها في العصر العباسي قد تمت على أيدي رجال آمنوا بعقلية مجتمع كان قد حكم على المرأة بالواد المعنوي بعد أن تم له عزلها عن الحياة العامة في سراديب الحريم.

2- د . أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ص 435/ 436

ورغم ماوصفت به الخنساء من النباغة في الشعر فبعض مؤرخي الأدب لم يعترفوا بها إلا راثية نائحة حيث قالوا : ماهي " إلا ندابة"[3]. وكان الرثاء هو المجال الفسيح الذي أبدعت فيه، وجولة في قصائدها تكشف لنا أنها امرأة تؤمن بقضية ... فالاتجاه العام في تفسير التراث بدءآ بالأساطير التاريخية ـ كجزء منه، تعبر عن أشواق الإنسان وأمانية وآماله ـ طمس الصورة الإيجابية المشرقة للمرأة التي تحاول أن تتجاوز قدرها ليبرز لنا الوجه الآخر للصورة... وكم هي مخيفة ومرعبة وقاتمة !!

فالآراء المناهضة لها استهوت مفسري وفلاسفة الإسلام كأبي حامد الغزالي، وشكلت لحنا لسنفونية توحد بينها وبين الشيطان والحية والخطيئة وتغنوا بها... ذلك أن وظيفة المفسر أو الفيلسوف تقوم أساسا على الحفر في ذاكرة التاريخ بغية الكشف عن الأفكار التي يرتكز عليها، ويتعهدونها بالنقد والتمحيص لإخراج معانيها من مركزيتها، فإن صادفت هوى في نفسه عمدا لتأكيدها. والتراث كثقافة موروثة لايدل على وجود أساس شرعي إسلامي لهذه النظرية. وقراءة حرة مفتوحة قائمة على الموضوعية والديمقراطية ـ وإن كانت لاتعجب أصحاب الامتياز ـ تحيلنا إلى الأدوار الحقيقية الإيجابية المسؤولة التي مارستها المرأة في مسيرتها منذ عقود.

فالقصص الدينية التي تبدو في ظاهرها تسجيلا للعيوب وأوجه النقص والعجز في تفكيرها وسلوكها أبرز شاهد يكشف في العمق عن دورها الخلاق في تقدم المعرفة الإنسانية وإبداع الحضارة .. قصة خروج آدام من الجنة ترمز إلى عقلية المرأة، وتفكيرها المتشكك، وبحثها عن الحقيقة، ورغبتها في المعرفة. وهبوط آدام إلى الأرض أولى الخطوات لخلق المجتمع الإنساني، صانع الحضارة التي تدين بوجودها في الجوهر إلى المراة، الباحثة عن الحقيقة، والشك حافز وأساس الابتكار والإبداع، وحواء أول من مارس

3- عبد الفتاح عبادة ، المرأة المصرية والمرأة العربية في التاريخ مطبعة الهلال سنة .1919

هذا الحق فكانت النتيجة إبداع الحضارة في الكون، فلم لاتكون الإنسانية مدينة لها في هذا المجال ! يقول "أبو حامد الغزالي " من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر يبقى في متاهات العمى والضلال"

لاجدال أن المرأة العربية اليوم تهتم بقضايا مجتمعها السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية وتشارك بفعالية في العمل الاجتماعي، وحجم تواجدها في إيقاع الحياة أكبر، وسيرها نحو التحرر والمساواة ملحوظ، لكن عملها النضالي وتواجدها الفعلي لم يمتد بعد إلى جميع المساحات، ولم تتمكن من تأسيس الصلة على قواعد جديدة مع القاعدة العريضة للنساء ـ نضالها يقتصر على النخبة ـ و من دخول العمل السياسي (المجالس البلدية والحضرية والجهوية، مجلس النواب ومجلس المستشارين ومختلف دواليب الدولة) من بابه كقوة منظمة ضاغطة في المجتمع .. بل ترضى بولوجها "كضيفة" من كوات معينة بمواصفات وضوابط معينة، وعدد محدود لتجد نفسها في مرحلة الممارسة عاجزة عن الفعل واتخاذ القرار... مما يوضح تعثر حركتها التحررية التي يجب أن تستمد مصداقيتها من خلال قوة نسائية منظمة واعية وضاغطة قادرة على تشكيل الواقع وتنظيمه، بابتكار صيغ حضارية بناءة، عوض الاعتماد على نماذج مستوردة من نضال المرأة في الغرب الرأسمالي الامبريالي مثل اقتصاد بلدها المتخلف، والتي لاتدفع إلى التحرر العميق، مما يجعل مسيرتها تفتقد إلى الجذور، وكل مايفتقد جذوره يكون عرضة للاندثار والتشتت عند أول هبة ريح. لاأقصد بالجذور أوهام الخصوصية والهوية الثقافية، فالعصر عصر عولمة والانغلاق على الذات لا يجدى، المطلوب العمل على ابتكار طرق نضالية من صميم واقعنا وفهم أنفسنا كجزء من مسيرة تحرر الإنسان في مجتمعنا، كي تنجح في تغيير علاقات القوة والمعرفة، وإلا فسنعيش مفصومات الشخصية أجسامنا في الوطن وروحنا في الغرب !!

جسر الخطيئة (أسطورة المرأة الضلع)

تستقي الأساطير وجودها من موضوعات كائناتها ميثولوجية تتجاوز تصورات الواقع الملموس، فهي وليدة الفكر الانساني، ولها ارتباط جدلي بالبنية الاجتماعية، إذ تشكل لغة التعبير الشعبي، وموضوع اعتقاد لاتصالها الوثيق بالغيبيات، مما يكسبها خطورة قصوى لأنها تقدم تفسيرات جاهزة، وتفرض سلوكات معينة ملبية لطموحات الايديولوجية التي تخدمها. ولا يخلو شعب من شعوب العالم اليوم والعصر عصر أبحاث علمية دقيقة، وتكتلات سياسية واقتصادية، وثورة اعلامية حطمت الحدود، من الفكر الأسطوري إذ يشكل مجالا من مجالاته الثقافية، وبعدا من أبعاد الوعي البشري، يكفي الإشارة إلى تواجد أبواب وأعمدة قارة في صفحات مجلات ذات أهمية على المستوى العلمي والمعرفي، وأقلام يمتزج فيها التقدم التكنولوجي باستحضار الأرواح، بغض النظرعن الميزانيات التي تصرف في مجال الخرافات والشعوذة في عصر التقدم العلمي الذي من المفروض أن يقوم بإلغاء هذا الفكر لأنه نقيضه، لكنه لم يفلح في القضاء عليه بقدر ما أفلح في ترويض الإنسان للتعايش معه. وقد نالت المرأة حصة الأسد في الفضاء الأسطوري الذي يشكل هويتها !!! فقصة خلقها من الضلع وتوحدها بالحية، وبإبليس والطرد من الجنة تشكل الإطار المرجعي المؤسس لاضطهادها التاريخي الذي تضرب جذوره في أعماق الأساطير، والذي ماتزال تعاني منه في عصر الأنترنيت والعولمة !!!

وإذا كان النص القرآني بريء من قصة المرأة الضلع فإن النص التوراتي في بنيته الفكرية والثقافية حاضر في كتب التفسير الإسلامية.

في الميثولوجيا التوراتية يجبل الرب الإله آدم من تراب الأرض، وينفخ فيه نسمة حية، فيصير آدم نفسا حية، يأخذه ويضعه في جنة عدن [1]

وقال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده، فاصنع له معينا نظيره [2] ويوضح الإصحاح نفسه كيف خلق الإله الرب لآدم هذا النظير في حواء «فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى حواء امرأة لأنها من امرئ أخذَت» لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسدا واحدا. وكان كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان [3] ودعا آدم امرأته حواء لأنها أم كل حي [4].

وأوصى الرب الاله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت.

كيف تتحدث التفاسير والتأويل الإسلامية عن هذه القصة الميثولوجية ؟ !

اختلف أهل التفاسير في الحالة التي خلقت لآدم زوجته، والوقت الذي جعلت له سكنا، لكنهم يتفقون على قصة الضلع.

1- سفر التكوين : الإصحاح 2
2- سفر التكون الاصحاح .2- 16- 18
3- سفر التكوين الاصحاح 2- 21- 25
4- سفر التكوين الاصحاح 3- 20

يقول الطبري : وأسكن آدم الجنة، وكان يمشي فيها وحشيا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة، واستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنت ؟ قالت امرأة ، قال : ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلي.

قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ علمه :

ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء. قالوا : ولم سميت حواء ؟ قال : لإنها خلقت من شيء حي. فقال الله له : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما [5] .

ويتفق عبد الله بن عباس مع الميثولوجية التوراتية .

«إن الله أخذ ضلعا من أضلاعه. من شقه الأيسر، وملأ مكانه لحما وآدم نائم لم يهب من نومته، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كشف عنه السنة، وهب من نومه، رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله اعلم، لحمي ودمي وزوجي [6] .

وإذا كان الطبري يشك فيما ذهب إليه ابن عباس فالقرطبي يعتمد على قول ابن مسعود وابن عباس :

لما أسكن آدم الجنة، مشى فيها متوحشا، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال : من أنت ؟ قالت : امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي. «وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها»

5- الطبري : جامع البيان في احكام القرآن ج 1 ص 229

6- الطبري : جامع البيان في أحكام القرآن ص 230

ويرى ابن كثير و ابن عباس وابن مسعود.

أن آدم كان يمشي في الجنة وحشيا ليس له فيها زوجا يسكن إليها فنام نومته، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها : من أنت ؟ قالت : امرأة. قال : ولم خلقت قالت : لتسكن إلي. فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ علمه، ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء. قالوا : ولم كانت حواء ؟ قال لإنها خلقت من شيء حي.

ويروي محمد بن اسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر وهو نائم ولأم مكانه لحما [7] .

المرأة الضلع التي خلقت اساسا للتسلية وتخفيف الوحشة عن آدم في صياغة الاسطورة التوراتية نقلها المفسرون والمؤولون المسلمون بتفاصيل ومواقف اسطورية رسخت في الذاكرة الشعبية كحقيقة مطلقة يستحيل انتشالها. فالمرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع، وإن كان لا يمكن الاعتماد على هذا التفسير كحقيقة علمية عند الخاصة.

الإغراء الجنسي الموصل هو الآخر إلى الخطيئة الأصلية وحكاية السقوط أسطورة أخرى تعيد المرأة إلى الزمن الأصلي، "زمن حواء".

أباح الله لآدم وحواء أن يأكلا الفاكهة من أشجار عدن باستثناء شجرة معرفة الخير والشر التي تورث من يذوقها أو يلمسها الفناء، إلا أن الحية قالت لحواء بلسان معسول : ألم يحظر عليكما الله أكل الفاكهة ؟ أجابتها حواء قائلة : كلا بل نصحنا بالابتعاد عن شجرة معينة في وسط الجنة، وإلا كانت عاقبتنا الموت. قالت الحية أي الشيطان : إذن فقد

7- ابن كثير : تفسير القرآن ج1 ص 19 - 20

خدعكما الله لأن ثمرها لا يسبب الموت، بل يورث الحكمة. إنه يريد أن يبقيكما في جهل مطبق، واقتنعت حواء بأكل الفاكهة وأقنعت آدم [8]

بعد أن تناول آدم وحواء من ثمرة المعرفة نظر كل منهما إلى الآخر، فأدركا في الحال أنهما عريانان، عند ذلك قطفا أوراق تين وخاطاه ليصنعا منه لباساً لكل منهما، ثم تنادى إليهما صوت خطوات الله في الجنة عند الغسق. فاختفيا خلف الاشجار، فنادى الله آدم قائلا : آدم، آدم أين أنت ؟ فأجابه آدم من مكمنه قائلا : تزامن إلي صوت خطواتك يا مولاي فاخفيت عربي حياء".

لكن الله سأله : ومن أخبرك أنك عريانا. هل أكلت من ثمر الشجرة المحرمة ؟ أجابه آدم" أعطتني حواء من ثمر الشجرة فأكلت. التفت الله إلى حواء وقال : «واحسرتاه أيتها المرأة، ماذا فعلت ؟! فجرت حواء حسرة وقالت : اغرتني الحية. فقال الرب للحية "لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت، على بطنك تسعين، وترابا تأكلين كل أيام حياتك، واضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وانت تسحقين عقبه. وقال للمرأة : تكثيرا أكثر أتعابك في حملك، بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك.

وقال لآدم : لأنك سمعت أقوال امرأتك، واكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا : لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تاكل منها كل أيام حياتك، وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تاكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود [9] .

8- سفر التكوين 3 - 1 - 6

9- سفر التكوين 3 - 20 - 21

في القرآن الكريم «وقلنا ياآدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين» [10] .

وفي سورة طه «فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من روق الجنة وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى [11] .

في تأويل الطبري أن آدم دعاها لحاجته فقالت : لا إلا أن تأتي ههنا،، فلما أتي قالت : لا إلا أن تأكل من هذه الشجرة. يضيف الطبري "لما أراد إبليس أن يستزلهما دخل في الحية، وكان للحية أربع قوائم كأنها بختية في أحسن دابة خلقها الله. فلما دخلت الحية الجنة، خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حواء وقال لها : انظري إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها. فأخذت حواء وأكلت منها ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت :انظر إلى هذه ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها وأحسن لونها. فأكل منها آدم، فبدت لهما سوءاتهما، فدخل آدم في جوف الشجرة فناداه ربه : يا آدم أين أنت ؟ قال أنا ههنا يارب، قال ألا تخرج ؟ قال أستحي منك يارب. قال : ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكا. ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجر كان أفضل من الطلح والسدر، ثم قال : يا حواء انت

10- سورة البقرة الآيتان : 34- 35

11- سورة طه الآيات : 114 إلى 119

التي غررت عبدي، فإنك لاتحملين حملا إلا كرها، فإذا أردت أن تضعي من في بطنك اشرفت على الموت مرارا. وقال للحية : أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى أغرى عبدي، ملعونة أنت تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحدا منهم اخذت بعقبه وحيث لقيك شذخ رأسك.

قصة خروج آدم من الجنة في صياغتها التوراتية تحمل المرأة وحدها لا الرجل مسؤولية السقوط. وهو موقف يكشف الانحياز ضدها.

في الميثولوجيا الاسلامية يتسلل الشيطان إلى جوف الحية ليدخل الجنة ويغرى حواء، وحواء تغري آدم تحت تأثير سلاح الإغراء الجنسي فتوقعه في الجناية العظمى "خروج البشرية من الجنة حسب القصة التي أوردها الطبري نقلا عن وهب بن منبه، احد أحبار اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ومزجوا بين التراث اللاهوتي واليهودي والعقيدة الاسلامية. **وبالتالي فالضمير الإسلامي بفكره وثقافته يجعل المرأة لا رمزا للشر والإثارة والرذيلة والخطيئة، بل أصلها، وتكون قد أضاعت الجنس البشري بإقناعها لآدم أن يذوق من الشجرة، وكذا سائر الوحوش والطيور، ماعدا طائر العنقاء المحترسة التي استنكرت وحدها ما فعلته حواء، ففازت بالخلود الأبدي. وارتبط اسم المرأة منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا :**

* بإبليس الشيطان بصفتها الجنس الضعيف الجانح إلى الانحراف، في حين اعتبر آدم البريء الضحية مثال الخير. **وصار الحب والجنس في ثقافتنا العربية الاسلامية يقترنان بالشيطان ويرمزان إلى الرذيلة .**

"ما آيس الشيطان من شيء إلا أتاه من النساء "

"ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما"

لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر كله

(رواه مسلم)

* وبالحية كرمز لحواء المثيرة للشهوة المدغدغة للعواطف المحفزة للغرائز، توظفه مختلف مجالات التعبير الادبي والفني لكونها ترسخت في اللاشعور الإنساني.

قال أحدهم : **سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندي ونصف سهمي وأنت رسولي في حاجتي** [12] .

وفي الحديث : **إن إبليس الملعون يخطب شياطينه فيقول : عليكم باللحم وبكل مسكر وبالنساء فإني لم أجد جماع الشر إلا فيها.**

من هنا الخوف على الأمة بأسرها مما قد يصيبها من المرأة

"ما أخاف على أمتي فتنة أخوف عليها من النساء والخمر "

واقترن اسمها بالحية "آمن للحية ولا تامن لمرية"

مقتطفات من أدبيات إسلامية نسجتها عقول متحالفة مع طبقات الاقطاع الساهر على تكييف الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفق مقدسات تخدم مصالحها.

في القصص الصينية كل الاشياء كانت في بداية الامر خاضعة للانسان، ولكن امرأة أوقعت بنا في ذل الاستعباد، فشقاؤنا لم ياتنا من السماء، بل جاءت به المرأة التي أضاعت الجنس البشري. وأنزل الله بها عقابا أبديا : نقص العقل والدين والتحالف مع الشيطان.

في جميع الميثولوجيات السابقة عن الاسلام تقع مهمة الدنو والاقتراب على الآلهة الأنثى.

---

12 - ابن القيم : تلبيس إبليس ص 25 الرائد العربي بيروت 1368 هـ

ـ في ملحمة الخليقة السومرية تزدلف نِنْليل من الإله انكيد لتلد ننّا إله القمر

ـ في ملحمة جلجامش تدنو عشتار من جلجامش عارضة مفاتن جسدها الإلهي.

ـ وحواء بجمالها الساحر تزدلف لآدم تدعوه لحراثة فرجها .

الخطاب الإسلامي كخطاب ذكوري يجعل من الرجال مجرد منفذين لرغبات وأوامر النساء ويجعل من النساء أطراف المعارضة الرئيسيين

فقوم ثمود الذين كانوا مولعين بالقيم الجمالية ولوا أمرهم لامرأة.

يقول القرطبي أن ملْكهم كان إلى امرأة يقال لها ملكى فحسدت صالحا لما مال إليه الناس[13] .

وهذه النساء تنذر جسدها وجمالها قربانا على مذابح آلهتها المهددة من قبل دين صالح الجديد. فعنيزة ابنة غنم بن مجلز المكناة بام عثمان العدوة الأولى لصالح تنذر إحدى بناتها الجميلات لقدار بن سالف إن هو عقر الناقة

والمرأة الجميلة صدقة ويقال صدوق أو صدوف بنت المحيا بن زهير بن المختار التي تفارق زوجها المسلم، تنذر نفسها لمصدع بن مهرج ان هو عقر الناقة .

فالخطاب الإسلامي يبلور بنفس طريقة التفكير الاسطوري اشكالا ومعاني جديدة. يقول عبد الوهاب بوحديبة "ان الانتقال من القرآن والسنة إلى الفقه هو انتقال الوحدة المؤتلفة بين الجنسين إلى الثنائية. **فالفقه ينظم المجتمع الاسلامي وفقا لتقسيم ثنائي للجنس** [14] .

13- القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ج7 المجلد 4 ص 238 . بيروت، دار الكتاب العربي

14 - Abdelouab Bouhdiba : La Sexualité en Islam op. cit. p 260

نكاح البعولة (المرأة كموضوع جنسي)

إن التفكير كالحب والموت لا بد لكل منا أن يمارسه بنفسه

جيشوارويش

خلق الله آدم من تراب في الجنة التي اعدت للمتقين. «إنا خلقناكم من طين لازب من حمإ مسنون[15]» . "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" وخلقت حواء من ضلعه. هذا هو المفهوم الديني للمرأة عند العامة.

ومن هنا تاتي الوصية بها لا على أساس أنها خلقت من الضلع فقط، بل من الضلع الاعوج.

عن أبي هريرة قال (ص) "إن المرأة خلقت من ضلع وفي رواية وان اعوج شيء في الضلع أعلاه، لن تستقيم لك على طريقة واحدة، وان استمتعت بها استمتعت بها على عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها" رواه مسلم.

ومادامت قد خلقت من اعوج فلا يستقيم امرها، ولا يكتمل وجودها إلا بالرجل، الذي تكتسب منه قيمة حياتها،بحيث يداري بعقله اخلاقها، ويوجه طيشها وسفهها، لذا رغب الاسلام في الزواج منها :

" النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني [16]"

---

15 -سورة طه الآية 71 - 72 سورة الرحمن الآية 12 .

16 - قوة العيون شرح نظم ابن يامون في النكاح الشرعي وآدابه. محمد التهامي كنون الادريسي ط. 3 ص 13 دار العلم للجميع سنة 1963

"فضل المتاهل على العازب كفضل المجاهد على القاعد.

وركعة من متاهل أفضل من سبعين ركعة من عازب"

تقول عائشة رضي الله عنها : **" ألغى الإسلام جميع أنواع النكاح، ما عدا نكاح البعولة"**

فما المقصود بنكاح البعولة ؟ جاء في لسان العرب : البعل : الزوج، وسمي زوج المرأة بعلا لأنه سيدها، ومالكها، ويطلق لفظ البعل على المالك والرئيس، مادام رئيسا ممتلكا.

وتبعلت المرأة يعني أطاعت بعلها، ونقول امرأة حسنة التبعل إذا كانت مطيعة لزوجها محبة له.

والبعل :" صنم : وسمي بذلك لعبادتهم أياه كأنه ربهم. يقول عز وجل «أ تدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين : وقيل معناه أ تدعون ربّا. ويقال أنا بعل هذا الشيء أي ربه ومالكه.

نكاح البعولة يؤسس الحياة الزوجية ويجعل الرجل ربّاً لها وقيما عليها

"لا نكاح إلا بولي" (رواه الترمذي وأبو داوود)

وولي المرأة هو الذي يتولى عقد النكاح عليها ولا يدعها تستبد بعقد النكاح على نفسها دونه.

أيما امرأة انكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل* (رواه البيهقي ومسلم والحاكم)

---

* لقيت حركة النساء المطلبية التي توجت بتأسيس المجلس الوطني للتنسيق في مغرب التسعينات صدى داخليا وخارجيا ولدى مراكز القرار نظرا لطابعه التنظيمي واتساع قاعدته وللطبيعة العملية التي ميزت شعاره" ضرورة تعديل مدونة الاحوال الشخصية لتجاوز المشاكل الاجتماعية والقانونية الناتجة عن مضمونها وعن الأجراءات المسطرية المرتبطة بقضايا الاحوال الشخطية" وركزت على إلغاء الولاية في الزواج لأنه يتعارض مع معطيات المادة 16 من الاعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على إلزامية رضى الطرفين، ومع مضمون اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة ومع مقتضيات الدستور المغربي التي تنص على حق المرأة في تمثيل نفسها ـ وصدر القانون الجديد متضمنا تعديلات منها
إلغاء الولي في عقد الزواج بالنسبة للرشيدة التي لا أب لها والحفاظ عليه كشرط بالنسبة لباقي النساء. ومكرسا نكاح البعولة

في ظل هذه المؤسسة يحق للولي عرض ابنته على من يلمس فيه التقوى والصلاح.

فنبي الله لوط يعرض ابنته : قال : **إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين** [17] .

وعمر بن الخطاب يعرض ابنته حفصة على بعض الصحابة قائلا : «إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر[18] .

ونكاح البعولة رق حسب الحديث :

«النكاح رق، فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، فلا يزوجها إلا ممن كان كفؤا لها» رواه البيهقي

ومرتبة الزوج في نكاح البعولة تأتي بعد مرتبة الاله.

«لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي (ص)، فقال : ما هذا ؟ قال : يارسول الله رأيتهم يسجدون لبطارقتهم واساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك. قال : لا تفعل فإني لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها. والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها »

وعن حصين بن محصن أن عمة له أتت النبي (ص)، «فقال لها أ ذات زوجٍ أنت ؟ قالت : نعم. قال : فأين أنت منه ؟ قالت : ما آلوه إلا ما عجزت عنه. قال : فكيف أنت له فإنه جنتك ونارك»

---

17 - سورة القصص الآية 27

18 - رواه البخاري

وفي الحديث «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتْها الملائكة حتى تصبح»

وقال الرسول (ص) : «لعن الله المسوفات » : التي يدعوها زوجها إلى فراشه فتقول سوف (...) حتى تغلبه عيناه (رواه البخاري عن أبي هريرة)

وقال ابن عباس : "حق الزوج على زوجته إذا أرادها فراودها على نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه"

في نفس السياق يقول الغزالي : النكاح رق، فهي رقيقة له، فعليها طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها في نفسها.

إنّه خطاب يحول المرأة إلى «ظل للزوج» وإلى مجرد صدى له، ويفرض عليها أن تكيف أحاسيسها وشعورها وكينونتها وفقا لمتطلبات الرجل، ولا قيمة لها منفصلة عنه.

والمرأة في النشاط الجنسي موضوع للمتعة فقط

«فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة» [19]

"ارضوهن فإن رضاهن في فرجهن"

وكلمة نكاح لا تعدو أن تكون عملية تماس فيزيائية لا تتضمن لغويا أي شيء يوحي باللذة الجنسية أوالمشاركة في العملية من قبل المرأة موضوع الجنس ويخاطب بها الرجل وحده [20] . في القرآن الكريم

«فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»

19 ـ سورة النساء الآية 24

20- بوعلي ياسين الثالوث المحرم، ص 45

والمفروض أن يتم الاتصال في تلك العلاقة الحميمية السامية لا عن طريق تماس فيزيائي فقط بل اخلاقي وسلوكي وفكري وروحي.

وتفضل العذارى على الثيب **فقد نصح الرسول (ص)، رجلا أتاه يستشيره في امرأة ثيب يحبها أ يتزوجها ؟ فقال له : "هلا جارية تلاعبها وتلاعبك"**

متفق عليه عن جابر.

وقول الرسول (ص) هذا قد يكون صادرا عن تجربته العملية من خلال زواجه بخديجة رضي الله عنها !!!

«ما للعذارى ولعابها»

رواه البخاري

وللزوجة البكر من زوجها سبعة أيام الأولى بعد الزواج في حين. لا تنال الثيب سوى ثلاثة أيام .

فحسن التبعل القائم على الملكية والسلطة والتفاوت هو الأساس الذي تنبني عليه الحياة الزوجية. قيل للرسول (ص) : **أي النساء خير : قال : التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا في ماله بما يكره (رواه البخاري)**

أحاديث تفيد أن الزوج قد يملك بصك عقد الزواج المرأة كما يملك بقعة أرضية، ويصبح وضعها كوضع العبد بالنسبة لسيده، حيث لا قوة له ولا حول. وفي النساء من وعين وضعهن في ظل هذه المؤسسة فعزفن عن الزواج لظروفه المجحفة لحقوقهن و ولما فيه من إهدار لإنسانيتهن وكرامتهن.

أتى أحدهم إلى الرسول (ص) فقال له : إن ابنتي هذه أبت ألا تتزوج، فقال لها : الرسول (ص) أطيعي أباك. فقالت : والذي بعثك

بالحق لا أتزوج حتى تخبرني ما حق الزوج على زوجته، قال : حق الزوج على زوجته ولو كان به قرحة فلحستها، وانتثر منخراه صديدا أو دما ثم ابتلعته ما أدت حقه.»

هذا الجواب جعل الفتاة تقول : **والذي بعثك بالحق لا أتزوج أبدا** (رواه ابن حبان)

ومفهوم كلمة "بعل" يتضمن صورة الهيمنة الاجتماعية للرجل قال على بن أبي طالب : الصلاة قربان كل تقي والحج جهاد كل ضعيف ولكل شيء زكاة، وزكاة البدن الصيام، وجهاد المرأة حسن التبعل» [21] .

وقال الرسول **(ص) اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما : عبد آبق حتى يرجع إلى أهله وامرأة عصت زوجها حتى ترجع** (رواه البخاري)

وتتحول المرأة في إطار هذه المؤسسة التعاضدية إلى آلة للتفريغ ووسيلة للترويح عن النفس والتحصين من الشيطان.

قال (ص) **«تزوجوا الودود الولود فإني مباه بكم الأمم».**

«إن المرأة إذا قبلت أقبلت بصورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها » رواه مسلم والترمذي

والرقيقة بالنكاح لا مخلص لها سوى الخنوع، وأي تمرد أو عصيان منها مرفوض، أما الطلاق فبواسطته يلوي الرجل عنقها وتستحال ممارسته من طرفها.

21- ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ج 4 ص 308

قال (ص) : «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة [22] (وقيل : أن المختلعات هن المنافقات وما من امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فتحرم رائحة الجنة» .

وقال الشيخ الأزدي : «لا تنكح أربعا : المختلعة والمبارية والعاهرة والناشز» متفق عليه من حديث جابر)

وقيل بل ستة : لا أنانة ولا منانة ولا حنانة ولا حراقة ولا براقة ولا شداقة تستقل بنصيبها في كل شيء.

وفي المقابل نجد الخطاب الاسلامي صارما في حث الرجل على احترام المرأة الطائعة والمطيعة، والاهتمام بها (مفهوم الطاعة بوصفه التعبير السلطوي المباشر للتبعية القائمة على منهج التفاوت بين الناس). هذا النكاح يضفي على الرجل صفة القداسة المحفورة في ذاكرة المخيال العربي باعتبار أن الراعي لا يقبل من يشاركه الحكم في مملكته، والرجل مسؤول عن رعيته في البيت،والمرأة التي تتعدى حدود مارسم لها في بيت الزوجية امرأة ناشز متمردة، تشق عصا الطاعة على سيدها. فالاسرة كخلية أولى في المجتمع تجسد هي كذلك مفهوم الطاعة السياسي العقيدي السلطوي لرب الاسرة وراعيها انطلاقا من تجذر قدسية السلطة الرعوية في المخيال العربي[23].

قال الرسول (ص) «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت الجنة (رواه أحمد والبزار)

وقال أيضا لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما انفقت من غير أمره فإنما يؤدّي إليه شطره» رواه البخاري).

22ـ المنذري الترهيب والترغيب ج 3 ص 84

23 ـمحمد عبد الجابري، العقل السياسي العربي ص 42 المركز الثقافي العربي.

وفي حديث آخر : «**ولا تعطي شيئا من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت كان له الأجر وعليها الوزر** (رواه البيهقي والطيالسي).

وقيل «ما انفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل يؤجر على اللقمة التي يرفعها إلى في امرأته» متفق عليه من حديث ابن مسعود) .

ظل الخطاب الاسلامي عبر العصور نسيجا اجتماعيا قائما على الايديولوجية المحفورة في أعماق الوعي الجمعي المحرضة على عبودية المرأة وقهرها وحصر وظيفتها في المتعة الجنسية لرب الاسرة وحراسة البيت بأمانة في غيبته دون اتخاذ أية مبادرة ولو كانت في إطار ماتقره لها الرسالة، في ظل طبقة تتمتع بكل امتيازات الحكم الفردي المطلق تدعمها بنصوص وتأويلات وأحاديث صحيحة أو موضوعة لما يلائم ظروفها المستجدة، وتعمل على ترسيخها ولو بلغة السيف أحيانا ... حيث زواج الحرائر ذوات النسب العريق لدعم ذوي السلطان، واقتناء الجواري والإماء للمتعة طبقا للآية « **إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين**» [24] رغم ما يترتب عن ذلك من إرقاق الولد الذي أجازوه بدعوى أنه أهون من هلاك الدين، والغريب في هذا المنطق أن الدين نفسه يحض على العتق وتحرير الانسان، بل جعل تحرير الرقاب يقرب من الله، ويخفف الذنوب، إلا أن المنحى الذي اتجه إليه المجتمع خلاف ما يدعو إليه الاسلام حول الجنس إلى علاقة قسرية اغتصابية قائمة على الشهوة والبغي والسفاح لاحاجة طبيعية قائمة على التكافئ والاحترام والمودة والتقدير .

فقد كان نبي الله سليمان يطوف على تسعين امرأة كل ليلة وكان له عند كل امرأة شهوة (بمعدل عشر دقائق لكل واحدة منهن، كان يخصص لذلك 12 ساعة . وتزوج 700 امرأة وكانت له 300 جارية !!

---

24 - سورة المومنون الآية 6

* وكان الرسول (ص) يطوف على نسائه في الليلة الواحدة.

قال ابن عباس «أفضل هذه الأمة أكثرها نساء»، كان الرسول (ص) ممن أقدره الله تعالى على ذلك وحببه له وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين».

وعن طاووس أعطى رسول الله قوة أربعين رجلا في الجماع[25] .

* وكان علي بن أبي طالب أزهد الصحابة وله أربع نساء وسبع عشرة سرية، ونكح بعد وفاة فاطمة الزهراء بسبع ليال فقط .

* وأحصى المرائي زوجات الحسن بن علي وكن سبعين، ونكح مائتين. قال عنه أبوه "**لو قطع إحليل الحسن وعلق على باب الكوفة لعرفه كل أو نصف نسائها. وربما عقد على أربع أوطلق أربعا دفعة واحدة.**

* واحصي للمغيرة بن شعبة ثلاث آلاف امرأة على شكل دفعات كل دفعة تضم اربع زوجات وست وسبعين جارية.

* وكان عبد الله بن عمر من زهاد الصحابة وعلمائهم يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل. وربما جامع ثلاثا من جواريه في شهر رمضان قبل العشاء الأخير.

أما الجنيد فكان يقول "**احتاج إلى الجماع كما احتاج إلى القوت.** الزوجة قوت للاستهلاك وسبب لطهارة القلب ووسيلة للتفنن في ممارسة الجنس.

قال على بن أبي طالب "عليكم بالحارقة من النساء فما ثبت لي منهن إلا أسماء"*

25ـ نهاية الإرب في فنون الأدب القاهرة 1954 ص 294 ج 6

* المباضعة على الجنب / الغلمة : التي تسبب هيجان الشهوة

وفي الحديث «خير النساء الغلمة على زوجها»

وروى جعفر الصادق عن الرجل ياتي المرأة في دبرها فقال : لاباس إذا رضيت. قيل له : فأين هذا من قوله عز وجل فآتوهن من حيث أمركم الله. قال هذا في طلب الولد !!

وتقر الفلسفة الاسلامية بالحرية الجنسية للرجل، وبقوة الجنس عند المرأة، وبمبدأ الجنس لذاته، لكن من طرف واحد، ومع النساء من الدرجة الثانية (وما ملكت أيمانكم)

الشهوة عشرة أجزاء : تسعة للنساء والعاشرة للرجال إلا أن الله سترهن بالحياء [26] .

نكاح البعولة يجعل من الجنس علاقة مؤسساتية يمارس فيها البعل رب الاسرة سلطته على المرأة (موضوع الجنس) ومنها يستمد قوته وفحولته (الزوجات وما ملكت اليمين) والاقتصادية (الانفاق) والاجتماعية (مباركة المجتمع والقانون والاعراف) والايديولوجية حيث وضع المرأة كأنثى للاستئناس وإزالة الكرب يحرمها من العيش في ظل هذه المؤسسة في علاقة متكافئة مع الرجل ما دامت حاجتها الطبيعية إلى الجنس كحاجته ويقلص وجودها بتخصيص نفسها له، وتدبير شؤون المنزل التي لا تقوم ماديا في سوق العمل، بعيدا عن الحياة العامة للمجتمع في علاقة غير متكافئة اجتماعيا أو قانونيا، وخالية من مضامينها الانسانية، حيث يحق للبعل تأديب الزوجة المتمردة بالضّرب.

عن عمر بن الأحوض عن رسول الله قال : استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة

---

26 - الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ج 2 ص 33

مبينة. فإن فعلن فاهجورهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح (رواه أبو داود والنسائي) .

وحينما قال (ص) لاتضربوا إماء الله

جاءه عمر بن الخطاب وقال له "ذئرن* النساء على أزواجهن» فرخص بضربهن.

فطاف بآل رسول الله نساء كثيرات يشتكين أزواجهن فقال (ص).

« لقد طاف بآل محمد نساء كثيرات يشكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم.»

الحادثة تظهر ثورة نساء المهاجرين بعد أن احتككن بنساء الانصار اللائي كن واعيات متفقهات يناهضن زواج البعولة القائم على التسلط والقهر والإذلال وتجسد هذا التمرد في المظاهرة التي قمن بها أمام آل محمد بعد أن تعلمن من الانصاريات المتصفات بالجرأة لفرض احترامهن ورقة معاملتهن.

وانسجاما مع هذا المعطى الضيق القائم على سلطة التركيب الاقتصادي التي يستمد منها الرجل مشروعية هيمنته على الاسرة، فإن هذه المشروعية تمتد إلى الاطفال أيضا.

«أنت ومالك لأبيك»

فالرغبة في الاطفال تبنى على منطق المصلحة والمنفعة : فهم قرة عين في الدنيا وذخيرة للآخرة.

---

* ذئرن : ثرن ونشزن ـ أطاف : أحاط

* حاشا أن يكون الرسول (ص) قد قصد بالضرب الضرب المادي لأنه ماثبت أن ضرب في حياته قط. قد يقصد به الضرب المعنوي. فرجوعا إلى القاموس قد نجد في قوله تعالى : فإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا الصلاة ...» بمعنى إذا سافرتم وابتعدتم

قال عمر بن الخطاب "**إنما أنكح للولد**"

وإذا عجزت المرأة عن الارتقاء إلى مستوى المنجبات بالعقم فيجب الابتعاد عنها ولو كانت امرأة مكرسة للواجب قال الرسول (ص) : «**لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد** (اخرجه التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين موقوفا على عمر بن الخطاب)

سوداء ولود خير من حسناء لا تلد (اخرجه البيهقي)

والولد هو الهدف الأول وله وضع النكاح. حسب أبو حامد الغزالي «وهو قرة عين في الدنيا» : قالت امرأة العزيز قرة عين لي ولك !! ويقول تعالى : «**ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين**» [27] .

فالطفل إذا مات قبل أبويه يكون شفيعا لهما.

قال (ص) "**إن الطفل يجر بأبويه إلى الجنة**"(أخرجه ابن ماجة)

وقال أيضا : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له.

والادعية تعرض على الموتى في أطباق من نور. أكثر من ذلك يقال للمولود : ادخل الجنة فيقف على بابها ويظل محبنطئا أي ممتلئا غيظا وغضبا ويقول "لا أدخل الجنة إلا وأبواي معي. فيقال !! أدخلوا أبويه معه الجنة (اخرجه ابن حبان والنسائي عن أبي هريرة)

ويشكل هؤلاء الأطفال جبهة الرفض والمعارضة يوم القيامة ويعتصمون فرادى وجماعات ليستجاب لطلبهم بنجاة آبائهم.

27- سورة الفرقان الآية : 74

"إن الأطفال يجتمعون في موقف يوم القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة : اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة. فيقفون على باب الجنة فيقال لهم : مرحبا بذراري المسلمين، ادخلوا لاحساب عليكم، فيقولون فأين آباءنا وأمهاتنا ؟ فيقول الخزنة : إن أباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم، إنهم كانت لهم ذنوب وسيآت فهم يحاسبون عليها. قال : فيتضاغون ويضجون على أبواب الجنة ضجة واحدة، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم ما هذه الضجة ؟ فيقولون : ربنا أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا : فيقول الله تعالى : تخللوا الجمع فخذوا بأيدي آبائهم فادخلوهم الجنة [28]. والله عز وجل يقول : «**وأن ليس للإنسان إلا ما سعي وأن سعيه سوف يُرى ثم يُجزى الجزاء الأوفي**». سورة النجم الآية 37 إلى .40 مما جعل بعض الصالحين ـ طبقا لهذا المنطق النفعي ـ ينتبه يوما من نومه قائلا زوجوني زوجوني. فزوجوه، فسئل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقني ولدا ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة [29].

أين أبو حامد الغزالي باعتباره بوقا للسلطة من شبابنا المعطل التواق إلى الزواج والمعرض عنه كرها ! تبقى المرأة في زواج البعولة مكرسة للواجب نتيجة بقايا قوانين العبودية ولا تأمن على مكانتها قبل إنجاب الأولاد، والذكور منهم بالخصوص، وتظل العلاقة بين الأزواج والزوجات والابناء فارغة من الحب والدفئ العاطفي، فما عدا الأب فالكل يشعر بنوع من التعاسة والكبت والظلم والغبن هذا ما عبر عنه أحد شباب تونس في الستينات.

" من منا نحن العرب يستطيع أن يزعم بأن عائلته أو البيئة التي قد عاش فيها قد أرادته وقبلته وأحبته واعترفت بذاتيته ؟ لا أحد بكل تأكيد ! إذ

28- ا أبو حامد لغزالي : أحياء علوم الدين ج 2 ص 30

29- نفس المرجع ص 31

كيف يمكن للإنسان أن يكون محبوبا عندما ينحصر وجوده في كونه شيئا مفيدا قد جرى إنتاجه من أجل استمرار العائلة وشيخوخة الوالدين، أو من أجل إرضاء كبرياء الأب، الذي يثبت وجوده بكثرة أطفاله" إنه لا ينجبنا من أجل ذاتنا بل من أجل نفسه. وليس نحن الذين نأتي إلى العالم بل هو الذي يرى حياته مطبوعة بطابع التربية والقيمة. وهكذا فإن ولادتنا ليست إبداعا حرا، بل محاولة لتمديد حياة الأب. إنه ينجبنا لنكون سندا لحياته، وبالتالي فهو يحرمنا من حياتنا نحن، فنحن لا نعيش بل نتيح له أن يعيش هو من خلالنا وهذا ما يجعل حياتنا مزيفة منذ البدء[30].

وتظل المرأة عبر تاريخها الطويل تقاوم من أجل تأكيد وجودها في إطار أسرة سلطوية استبدادية تتعامل معها على أساس تراتب هرمي، ولا تعتبرها الشريكة المسؤولة. وفي مجتمع يقاوم هذا الوجود طبقا للجو الفكري والسياسي المشحون بالتآمر والشك والخوف يقول «فروم» إن الشخص السلطوي يعجب بالسلطة ويميل إلى الخضوع لها لكنه في الوقت نفسه يكون هو نفسه سلطة ويكون عنده آخرون يخضعون له. والسلطوي تثيره القوة إما لكي يخضع لها أو ليمارسها على من يعتبرهم أضعف منه.

والمرأة وكذلك الطفل والفقير مهيؤون لكي يمارس عليهم الاستبداد من طرف الرجل السلطوي (الزوج، الأب، الحاكم) لوضعهم الأدنى البيولوجي والاجتماعي والاقتصادي[31]. وفي نفس السياق يقول هشام شرابي "إن الاضطهاد في مجتمعنا هو على ثلاثة أنواع : اضطهاد الفقير،

30- Mohamed Karour "Une fois un Arabe, Une fois des Arabes: des Temps Modernes sept oc 1972 Q 347

31-جريدة العلم : المجتمع العربي بين قمع السلطة وقمع المرأة (مقال) : العدد 16905 - 23 ربيع الأول 1417 / 9 غشت 1996

واضطهاد الطفل، واضطهاد المرأة [32] . قال عمر بن الخطاب : "**كنا لا نعد النساء شيئا فلما جاء الاسلام وذكرهن رأينا لهن بذلك حقا**

(رواه البخاري).

ورغم أنه جمعها بالرجل الايمان والهجرة والسفينة والعلم والجهاد، فإن ما نزل في حقها قرآنيا كان بدافع شكواها والحاحها في الطلب والاحتجاج لتأكيد ذاتها، فالنساء هن اللواتي طالبن بالخروج إلى الجهاد وإلى المساجد "إن بعولتنا ليمنعننا من المساجد ليقول (ص) «**لاتمنعوا إماء الله مساجد الله**، وطالبن بشهود الاعياد «**دعوا العواتق ذوات الخدور يشهدن الأعياد**» ويشكين إكراههن على البغاء : إن سيدي يكرهني على البغاء لينزل قوله تعالى : «**ولا تكرهو ا فتياتكم على البغاء**»

ولسان العرب الذي نزل به القرآن يغلب صيغة المذكر إذا خاطب جمعا يضم الرجال والنساء واحتجت النساء على ذلك. «**أكنّ نساء الإسلام جامدات راكدات !!**»

وما نزل الوحي بإنصاف مظلومة إلا بعد تظلمها وشكواها للرسول (ص) عن ابْنِ حاتم عن عائشة : "تبارك الذي أوحى سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله قائلة : "**يارسول الله أكَلَ مالي وأفنى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني ظاهر مني، اللهم إني أشكوه إليك** قالت عائشة فما برحت حتى نزل جبريل بالآية : «**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي**» (سورة المجادلة)

وطالبن بحق الميراث : جاءت زوجة سعد بن الربيع محمدا (ص)، قائلة هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما معك في أحد شهيدا، وإن عمّهما أخذ

---

32 - شرابي هشام : مقدمات لدراسة المجتمع العربي ص 112 الدار المتحدة للنشر. بيروت ط 1975 / I

مالهما فلم يدَعْ لهما مالا ولا تنكحان إلا ولهما مال (تفسير الجلالين ص 198). واشتكت أم كحلة أخذ الورثة لمال زوجها وتركهم دون مال. وناقشت قوامة الرجل وافضليته : أتت امرأة رسول الله وقالت يا رسول الله للذكر مثل حظ الانثيين، وشهادة امرأتين برجل، أ فنحن في العمل هكذا ؟ إذا عملت المرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة. وقالت أم عمارة للنبي (ص) ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء لتنزل الآية 34 من سورة الأحزاب. وسألته أم سلمة : لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء لينزل قوله تعالى : فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم (آل عمران 195)

وتحت تأثير وطأة التبعية ومنهاج التفاوت الجنسي وفدت أسماء بنت يزيد الانصارية إلى الرسول معرضة عليه قضية المرأة بمفهومنا المعاصر وما تشعر به من حيف وقمع وظلم وهو بين أصحابه فقالت : «بأبي أنت وأمي يارسول الله أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبرسالتك، إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله. وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم في هذا الأجر والخير. فالتفت النبي (ص) إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟ فقالوا يارسول الله ماظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت إليها النبي (ص) وقال : «افهمي أيتها المرأة واعلمي من وراءك أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته تعدل ذلك كله »

(رواه مسلم)

إجابة واضحة تزكي مفهوم السيادة وتكرس واجب الطاعة والولاء.

وجاءت إليه امرأة أخرى فقالت : **أنا وافدة النساء إليك، هذا الجهاد كتبه الله تعالى على الرجال فإن أصيبوا أثيبوا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، ونحن معشر النساء نقوم عليهم فمالنا من ذلك الأجر ؟ فقال (ص) ابلغي من لقيتِ من النساء أن طاعة للزوج، واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله** (رواه الطبري والبزار)

نفس الموقف سيتكرر مع ابنته فاطمة الزهراء حين شكت إليه زوجها علي : "اسمعي واستمعي واعقلي أنه لا امرأة لامرأة لا تأتي هوى زوجها " [33] .

رغم ما يمكن الحديث عنه من تقدم المرأة أو تطور وضعها فالواقع الملموس يؤكد أنها لا تملك سوى الانتقال من مجتمع ذكوري إلى آخر يحتكر السلطة ويدعمها ويبني مشروعيتها اعتمادا على الفكر الاسلامي الذي قسم الناس إلى طبقة رجال وطبقة نساء وطبقة "عبيد" وأحرار. وما دام الضد بالضد يذكر فقد جاء في وصية أعرابية لابنتها عندما أهدتها لزوجها "اقلعي زجّ رمحه، **فإن أقر فاقلعي سنانه، فإن أقر فكسري العظام بسيفه، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه فإن أقر فضعي الاكاف على ظهره فإنما هو حمار وهذا هو قبيح التبعل.**

رغم هذا الوجه البشع لزواج البعولة الخالي من القيم الانسانية، والمدعم بميراث نقلي اتباعي، فالعديد من النساء يرفض القيم والمفاهيم العقيمة التي أقرها المجتمع الأبوي بالنسبة للاسرة والمرأة لأنها تكرس الخضوع والعبودية. فهل تحرر الرجال بمن فيهم منتجو الخطاب التقدمي من عقدة التفوق على المرأة في حياتهم الخاصة، التي تسكنهم في لاوعيهم لكي نستطيع أن نناضل جميعا لخلق علاقة انسانية تعطي القيمة لقدرة الفرد وابداعه وتحقيق.إنسانية ذكرا كان أم أنثى!!!

33- طبقات ابن سعد ج 7 ص 16

المرأة في المخيال التراثي العربي

«إذا أردت أت تتلمس الوحدة العربية الحقيقية ستجدها قائمة في الفنون الشعبية العربية»

الدكتور أحمد مرسي

من باب تعرفنا على واقع المرأة الذي هو حصيلة تراكمات وموروثات تركة الماضي التي تضرب بجذورها في أعماق أبنية اسطورية لاهوتية دينية منذ عصور ما قبل العلم والعقل، وانتقالها بالتوارث من جيل لجيل لتعيش معنا وتتحكم بمخيلتنا، وتتوالد تحت تأثير وسلطة العادة مدعمة لخدمة أغراض اجتماعية طبقية كان لزاما علينا طرح السؤال التالي :

إلى أي مدى جاءت استجابة هذا الموروث لحتمية التغيير والتشكل لما يحقق التوافق والاستجابة للحتميات العلمية والتطورات التكنولوجية، وما يوفر المزيد من التقدم والانتاج، ويواكب عصر العلم والتصنيع والثورة الإعلامية، ويحقق انسانية الانسان وانسانية المرأة بصفة خاصة.

قبل الإجابة عن السؤال لابد من تحديد مفهوم الموروث الثقافي الشعبي الذي سيكون محور بحثنا في هذا الفصل.

الموروث الثقافي الشعبي مادة حية تضم كنوزا فنية غزيرة تعتبر وعاء للكثير من العادات والتقاليد والاعراف التي تشيع في مجتمع ما، وتتداول بين أفراده، ويلتزم بها عبر أجياله. وهي نوعان :

أدب مكتوب في قصص وسير وحكايات، كتبه مؤلفون بإمكانهم الكتابة بالفصحى لكنهم آثروا الكتابة في العامية تلبية لاحتياجات العامة لهذا الصنف من الأدب.

وأدب منطوق لا يعرف مؤلفوه، حفظته الذاكرة الشعبية، كالامثال والحكايات والاساطير والخرافات والملاحم والموسيقى والغناء والرقص والالعاب والنكث والالغاز والنوادر وترانيم الأطفال ... وكل ما يرتبط بالمجال الشفهي، استوحت حياة القبائل العربية وإن كتبت خارج شبه الجزيرة العربية كمصر والشام والعراق والمغرب، وغلب عليها الفكر الديني الاسلامي الذي لم ينفرد به قطر دون الآخر، بل أتيح له الانتشارفي مختلف الاقطار العربية لكونه يعتمد في الغالب على طريقة واحدة في أساليب العرض وطرائق السرد.

ولا تخلو المأثورات الشعبية من حضور المرأة التي اسرت أقلام العديد من الادباء والعلماء والفقهاء ـ كما أسرت قلوبهم ـ فمن لم ينظم فيها شعرا كتب فيها نثرا، ومن لم يكتب فيها نثرا، ألف حولها قصصا وروايات، ومن لم يؤلف القصص والروايات سن لها أحكاما وقوانين وأول لها تأويلات !!! ومن لم يفعل ذلك كله اصدر فيها أقوالا تداولها الناس في شكل أمثال وحكايات وحكم ... هذا الحضور أتى بصيغ مختلفة حينا، متضاربة أحيانا، ترفعها إلى أعلى عليين وتسمو بها إلى مرتبة الملائكة تارة، وتضعها أسفل سافلين وتنزل بها إلى مستوى إبليس أخرى، أو تتخذ طابع الاثارة الغريزية كالرقص الخليع أمام جمهور من الثملين يتلذذون بامتهانها، وامتهان المرأة دليل على تردي أحوال المجتمع المعيشية، وفساد أخلاقه، وتزمته وانغلاقه على نفسه. إذ حيثما وجد التزمت والحصار، وجد في المقابل التركيز على الجنس ومفاتن المرأة.

ويعد التراث الشعبي أساسا لفهم سلوك الرجل العربي تجاه نفسه، قبيلته، عشيرته، مجتمعه، أسرته، وتجاه المرأة، بما تضمّنه من أفكار وتصورات مسبقة تكونت عبر العصور، وحفرت في الذاكرة بفعل ثقافة معادية لتقدم الانسان حضاريا ذكرا كان أم أنثى ؛ غير أن هذا التراث في مجمله يغازل الرجل ويقدم له ورقة تعريف عن المرأة بحيلها ومكائدها

ومساوئها وعيوبها الكثيرة، دون إغفال بعض المحاسن التي تدعوه إلى الاستمتاع بها، كوعاء يحفظ السلالة ويضمن استمرارية الاسرة لدرجة يتأكد معها المهتم بفنون ودخائر هذه الثقافة أنها موجهة من الرجل إلى الرجل، من الرجل المحنك الذي خبر الحياة وفهم اسرارها واحتك بالمرأة واطلع على جزئيات حياتها، ونسج خيوط هذه الصورة التي ابتكرها انطلاقا من أسطورة خلقها من الضلع وكونها الجسر الذي عبر منه آدم الضحية إلى الخطيئة، والطرد من الفردوس، وتجنيها على البشرية قاطبة، إلى ذلك المبتدئ الذي سيبدأ خطواته الأولى انطلاقا من أرضية تشكلت معالمها من القراءة الضمنية لعقلية الذي سبقه إلى الوجود، والمبنية أساسا على الخطيئة الابدية، باعتبار أن الافكار السائدة في المجتمع هي أفكار الرجل تتداول في مجتمع من صنعه، بصفته عنصر الانتاج الرئيسي وبصفته الأكثر خبرة وتعليما، وباعتبارها تشكل التابع الذي يتحكم فيه بشتى الوسائل(...) لتساهم بدورها في ترسيخ هذه الصورة عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية.

ولكون الثقافة الشعبية غنية الروافد، والبحث فيها ليس بالأمر الهين. إذ يتطلب الاضطلاع الواسع على المصادر العديدة والمراجع المتنوعة، وما يرتبط بالذاكرة المتداولة جيلا عن جيل، فإن أية محاولة لمجرد مسحها بجميع مكوناتها في بحث واحد لايفي بالهدف، ويعتبر تجنيا عليها لغزارتها وغنى محتوياتها، لذا آثرت الاقتصار على الامثال الشعبية والليالي العربية لكونها تؤسس فكريا وأسطوريا للعلاقة بين المرأة والرجل، وعبر بعض الابيات الشعرية فيما هو مكتوب، لكونها ترسم صورة المرأة من زاوية الشاعر أو الناظم الخاصة، كمحاولة لاستخلاص واقع المرأة من خلالها.

الأمثال مصابيح الكم*

كلمة مثل مأخوذة من العبرية، ومعناه الحكاية أو الأسطورة. وهي من المواضيع الأكثر شيوعا لارتباطها بعالم الغيبيات وقصورها على الارتباط بالواقع الملموس. نقل مسكويه (ت 421) عن أبي حيان التوحيدي (ت 400 هـ) " إن الامثال إنما تضرب فيما لا تدركه الحواس ممَّا تدركه، والسبب في ذلك أُنْسُنَا بالحواس، والفنا لها منذ أول كونها، ولانها مبادئ علومنا، ومنها نرتقي إلى غيرها. فإذا اخبر الانسان بما لايدركه، وحدث بما لم يشاهده، أو كان غريبا عنه، طلب له أمثالا من الحس، فإذا اعطي ذلك أنس به وسكن إليه لألفه له[1] . وفهمت العرب الأمثال على أنها حكايات تساق للاعتبار لما يتمخض عنها من دروس وعظات، ولما لها من وظيفة لا تنكر في التأثير والاقناع، ولا يخلو منها القرآن الكريم. يقول الجاحظ "ولن تجدوا وصايا أنبياء الله إلا مبينة الاسباب، مكشوفة العلل مضروبة معها الامثال [2] وتكمن أهميتها كجزء من تراث الشعب في قدرتها على تصوير البنية الروحية والفكرية والتربوية للمجتمع، رغم كلماتها البسيطة الساذجة في بعض الاحيان، والعميقة الدلالة بمحتواها ـ لكونها لا ترتبط بزمان ولا بمكان معين وإنما هي وليدة معاناة، أو صورة لبعض أساليب الحياة، أو نتيجة لعادات أصبحت جزءاً من الاعراف والتقاليد، عبّر الانسان من خلالها عما يخالج نفسه من مشاعر (...) حبلى بالحوادث التاريخية والحقائق الخلقية المنظمة للمجتمع، مما يكسبها الصدق في التعبير والقدرة على النفاذ إلى قلب الانسان العادي أو العالم المحنك، كما أن لها قداسة وسلطانا على النفوس. ومن الخطإ كما يقول مالنسكي أن ينظر إليها على أنها مجرد شكل من أشكال الفلكلور، أو مستندا إثنوغرافيا خاصا بأحوال الشعوب، وإنما هي

1 - الدكتور عبد المجيد قطامش الامثال العربية، دراسة تحليلية ص 154

2 ـ أبو عثمان الجاحظ : رسائل المعاش والمعاد ص 97

* من أقوال الجاحظ.

في الواقع عمل كلامي يدعو قوة معينة إلى التحرك، وفي اعتقاد الذين يصدر عنهم هذا الكلام أنه يؤدي إلى أقوى أنواع التأثير على مجرى السلوك الانساني [3].

وتتجلى أهميتها في كونها واقعية، بشرية، تسبق وجود الافراد، وتبقى بعد فنائهم، تريح النفس بما تنطوي عليه من حكمة وفلسفة علمية وخلقية، سريعة النفاذ إلى النفوس كما إلى القلوب والعقول، لأنها في الغالب منسوجة في جمل قصيرة نتيجة تجارب طويلة، واضحة المعنى، جرسية النغمة، ذات وقع طيب على السمع، والسمع أقصر الطرق لاصابة الهدف، كما أنها لغة الشعب بجميع طبقاته ومستوياته، تعكس مظاهر حياته وأسرارها اليومية المعيشة بجوانبها المتشعبة. وهي عند ابن المقفع "تعمر طويلا وهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة" تستمد بقاءها من المنظومة المعرفية للمجتمع الذي تفرض عليه أنماطا ثقافية معينة عن طريق عملية ترويض أفراده للتعايش معها.

وما أنت الامثل سائر   يعرفه الجاهل والغابر

وتتفاوت حظوظ الامثال من حيث الشهرة والذيوع، غير أن المتعلق منها بالمرأة كجسد وقول وسلوك وفعل حطمت الرقم القياسي في مصنفات العرب.

3- أحمد عيسى : مجلة التراث الشعبي ص 101 السنة 1979

"كمجير أم عامر" "كالفاخرة بحدج ربتها""أعزمن أم قرفة"[4] "أعز من الزباء" [5] "أعلم من سجاح"[6] .

وبظهور الحمى ظهر أول تنظيم طبقي اجتماعي عند عرب الجاهلية، والحمى هي النواة الأساسية لتحديد مفهوم الملكية الخاصة، وهو نوع من التملك المتولد عن حق الاستيلاء بسبب القوة أو الزعامة أو الاغتصاب. ويطلق اسم الحمى على المكان المحمي لوجود الاله فيه، وحرم الاله يستمد قوته من قوة المسيطرين عليه.

منعنـا أرضنـا من كـل حـي   كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر كي يسلبوهم   فحالت دون ذلك السيـوف

ثم صار الحمى ملكا لسادات القبائل لكونهم الأقدر على إحيائها باستخراج الماء من الأرض التي لا ماء فيها "الارض الموات" وتتحول بذلك إلى أرض نافعة ذات مياه متدفقة، ويبسط حافرها حمايته عليها ويجعلها ملكا له أينما وجدت، قريبا أو بعيدا من العمران، تدر عليه الارباح الكبيرة وتمكنه من بسط سلطانه عليها، وبهذه الكيفية نشأت الملكية بين القبائل[7] .

4- ابن منظور : اللسان العربي حرف قرف الدرة الفاخرة ج 1 ص 302

5- الزباء : امرأة من العمالق كانت ملكة الجزيرة العربية غزت مارد والابلق

6- سجاح : امرأة من بني تميم ادعت النبوة حين ادعاها مسيلمة الكذاب، واتجهت له فخلت به وتزوجته وقال فيها

ألا قومي إلى المخـــدع   فقد هيأنا لك المضجع

فإن شئت سبقناك   و إن شئت على أربـع

وإن شئت ففي البيت   و إن شئت ففي المخدع

فإن شئت بثلثـــه   وإن شئت به أجمـــع

فقالت بل به أجمع لأنه أجمع للشمل تاريخ الطبرى ج 3 ص 273

7- جواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام المجلد 7 ص 130 دار العلم للملايين مكتبة النهضة بغداد 1971

بعد أن كانوا شركاء في الماء والكلإ والنار. قال (ص) لا تبيعوا فضل الماء، ولا تمنعوا الكلأ فيهزل الماء ويجوع العيال. ولا يتاجر في الارض طبقا لحديثه (ص) فيما رواه الخباب «يؤجر العبد في نفقته كلها إلا ما كان في التراب»، وفي رواية «كل نفقة ينفقها الفرد يؤجر عليها إلا ما كان من نفقة في التراب»

ووصف القرآن الكريم العرب بالحمية والكبرياء وشدة التعصب والانفعال وعدم الانضباط **«اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية »** [8] .

ومن مظاهر الحمية عند العرب الدفاع عن النساء وحمايتهن في الحرب كما في السلم لانهن "لحم على وضم" كما يقولون،

ومنعهن من الاسرار والسبي . يقول علقمة في يوم ذي قار

من فر منكم فر عن حريمه

أو دب منكم دب عن حميمه

وجاره الأدنى وعن نديمه.

وكلمة حريم حسب القاموس العربي تعني ما دخل في الدار مما يغلق عليه الباب، وتعني كذلك ما يضاف إليها، وكان من حقوقها ومرافقها. والاصل في الكلمة هو التحريم والحرمة الذي يقابل الحلال في المعنى. والحريم بالمفهوم الديني معناه حرمة الرجل وهي حرمُه وأهله، وما يقاتل عنه ويحميه. والحرمة هي المهابة وما لا يحل انتاكه. وحرم الرجل هم نساؤه وعياله. فكلمة الحريم مصدرها التحريم والحرمة والحرام الذي يعني في معناه الشامل ارتكاب المعصية باشكالها المعروفة كالاغتصاب والسرقة وانتهاك

8- سورة الفتح الآية 26

ما يملكه الغير. والحريم قبل ظهور الاسلام، ووفق عادات أهل البادية يعني النظر إلى المرأة على أنها متاع شخصي، لا يجوز لأحد أن يراها داخل وخارج الخيمة. وبمجيء الاسلام وإقراره مبدأ الحفاظ على كيانها وصف العرب المدافع عن النساء وأعراضهن بحامي الديار، أو حامي الحقيقة. وسميت المرأة حقيقة لأنه يحق لأهلها الدفع عنها. والدفاع عن الحريم من صفات الحر الكريم. يقول أوس بن حارثة لابنه مالك.

"يا مالك إن كرم الكريم الدفع عن الحريم"

يا بني : **"إن أمثل القوم تقيه الصابر عن الحقائق والدائد عن الحريم"**
والكريم عندهم لا يحق له التقاعس عند انتهاك حرمته .

" لا بقيا للحمية بعد الحرائم"

وذكر الحرمة إهانة لا يتحملها العربي .

"كل شيء مهمة ما خلا النساء وذكرهن"

والحريم لا يشمل النساء القريبات فقط بل الجميع .

"كل ذات صدار خالة"

يقول عمرو بن كلثوم

إذا لم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيينا

والمرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام لا تحمي الذ مار ولا تمنع الحمى، وإنما كانت ضمن أهداف غارات العدو، وتورث القبيلة العار والهوان والذل إذا سبيت لذا منعوها من الارث.

"لا نورث من لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكي عدوا"

فمعيار التوريث هو القدرة على الانتاج وتحمل المسؤولية، مع أن الأوضاع الاجتماعية لم تكن تعرف الاستقرار، ولم يشكل العرب وحدة

سياسية اجتماعية منظمة، بل كانت التقسيمات حافزا لنشوء مجتمعات تضم طبقات اجتماعية متباينة، وفئات متمايزة تمارس بعض الانشطة الاقتصادية كالصيد والرعي والتجارة والصناعة. فكان منهم متحضرون يعيشون في اليمن ومدن الحجاز كمكة، والمدينة، والبتراء، وحمير، وتدمر كمراكز تجارية، وبدو متنقلون مع إبلهم وقطعانهم بحثا عن الماء والكلإ يظلون في الحمى الواسع (...) وكان وجود المرأة يختلف من فئة لاخرى موازاة مع ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية لمجتمعها، ويبقى التهميش هو السمة المميزة لوضعها رغم مشاركتها في مختلف مناحي الحياة، من خلال ما تقدمه من الصناعات الغذائية والنسيج والأواني الفخارية وبعض الصناعات الطبية كجبر العظام وصناعة العطور والاسلحة كالرماح، وممارسة التجارة مباشرة دون وسيط أو بتوظيف أموالها. وتبقى مسؤوليتها رهينة بالنظام والبنية الاجتماعية الاقتصادية القائمة على توزيع الادوار التي يكشف عنها قول الشاعر

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول*

ولم تكن مسؤوليتها في الكسب والقتال ترقى إلى مستوى مشاركة الرجل حيث كان الغزو يشكل مصدر دخله الرئيسي يقول ابن خلدون " رزقهم في ظلال رماحهم" [9].

* سجل التاريخ تمرد بعض النساء ممن أوتين نصيبا من المواهب والمكانة الاجتماعية كزرقاء اليمامة وأم هاشم بنت عبد المطلب وأم الكحلة التي كان يضرب المثل بنجابتها وخديجة بنت خويلد التاجرة المعروفة ومثيلاتهن اللائي كن يتاجرن لكن تجارتهن تمر عبر الرجل. فحينما عاد أبو سفيان من الشام وقد سلمت قافلته من محمد وأصحابه التفت حوله نساء قريش لمحاسبته على أرباحهن وما صار من نصيب كل واحدة منهن (جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام ط 1 / 1981 دار الحداثة بيروت.

9- ابن خلدون : المقدمة تحقيق عبد الواحد وافي ـ القاهرة لجنة البيان العربي 1957 / 1961

والمرأة ليس لها أن تدافع عن نفسها، بل لها أن يدافع عنها الرجل لا أن تحمل السيف لتدافع عنه [10].

فسلطته في العائلة يستمدها من حق الملكية كقوة أساسية في يده .

10 - أحمد عويدي العبادي في القيم والآداب ص 208 - 209 ط 1976 .

ما هي صورة المرأة من خلال الامثال الشعبية ؟ وكيف حاك الرجل بصفته عنطر الانتاج الرئيسي، الذي يقوم انتاجه في السوق، وبصفته الاكثر خبرة وتعلما، وبصفته حامل السيف والمدافع عن الحقيقة خيوط هذه الصورة ؟

لا يمكن تحليل الامثال الشعبية المتعلقة بالمرأة بعيدا عن المصدر الديني والخرافي كمنبع، منه يختار صانع المثل الادوات والآليات التي تتلاءم ونزعته المتأثرة بالوسط الاجتماعي الذي تربى فيه، وتمثل تقاليده وقيمه واعرافه، والتنظيمات الاقتصادية والظروف الاستبدادية التي عاشها ليصوغ امثالا في قالب دقيق محكم معبر مقصود ومحدد كابداع ثقافي انساني، وكمحاولة فكرية تقوم بدور رئيسي في تكوين الثقافة الشعبية، سيما وأن لكل نظام اقتصادي سياسي منظومة معارفه الاجتماعية.

ولا تتوقف وظيفة الامثال عند رسم معالم الحياة الاجتماعية ورصد انماط السلوك الانساني، بل تتعداه إلى تقديم نموذج يقتدى به. ولكون المرأة محور الحياة في البيت وخارجه، فقد تناولتها الامثال في أدوارها المختلفة انطلاقا من التهنئة بعيد ميلادها غير المرغوب فيه سعيا إلى التخلص منها :

"آمنكم الله عارها، وكفاكم مؤنتها، وصاهرتم قبرها"*

---

* يقول الشاعر :

لكل أبي بنت يرجى بقاؤها ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهـــر

فبيت يغطيها وبعل يصونها وقبر يواريها وخيرهما القبر

وإني وإن سيق إلي المهـــر الفا وعبدان وذوعشـــر

أحب أصهاري إلي القبـــر

واعتبر القبر سيد الأصهار. وإذا سلمت من الموت وهو أكرم لها "دفن البنات من المكرمات " *

" موت البنات ستر"

فإنها تعيش طفولتها كشيء مهمل تابع كليا للبيت إلى أن يتخلص منها عن طريق الزواج كعلاقة اجتماعية تضمن سترها وتريح أهلها من شرها.

"العاتق في الدار عار"

"البنت اما رجلها واما قبرها"

" ضرستك الا وجعتك قلعها، بنتك إيلا كبرت ودعها

"زوج من عود خير من قعود"

ورغم أن الزواج داخل العشيرة هو النمط الشائع في المجتمعات التقليدية ، فالأمثال تحذر منه

" لا ايسرت ولا اذكرت فانك تدنين البعداء وتلدين الاعداء"

"الاقارب عقارب"

"بعد من دمك لا يطليك"

وبقاؤها خارج إطار الزواج الشرعي يسيء إلى المركز الاجتماعي للعائلة لذا يفضلون الانفاق عليها وعلى الذي سيكفيهم همها .

---

* يقول الشاعر

تهوي حياتي وأهوى موتها شنقا

والموت أهوت نزال على الحرم

فالآن نمت فلاهم يؤرقني

بعد الهدوء ولا حب ولاحكم

"بعد اختي عني وخذ غلتها مني"

هذا العرض الطيب يغري الذي يرنو إلى الزواج ولا حيلة له

"الله يجيب اللي يحسن بنا ، يعطينا بنتو، ويخدم علينا"

"حط الهم بالجرة"

ورغم التأفف منها والاشمئزاز من مقدَمِها فلابد من الاعتراف بسعة رزقها حينما يتكاثر عددها بحثا عن الذكر ولو جبرا للخاطر.

"أب البنات مرزوق"

ويظل شبح الخوف من عودتها إلى بيت أهلها بعد الزواج ولو للزيارة يطاردهم لذا يفضلون بقاءها في بيت زوجها مكتفين بسماع اخبارها من بعيد .

"زوج بنتك وبعد دارها ما يجيك غير خبارها"

وزواج البكر أفضل من زواج الثيب ولو كانت مسنة

"العاتق إلى بارت على سعدها دارت"

والأصل الطيب مرغوب فيه ومقدم على المال لأنه عرض من أعراض الدنيا.

"يا آخذ القرد على مالو يروح المال ويبقى القرد على حالو"

ولا يقتصر الاصل الطيب على البنت بل يجب أن يتوفر في الام أيضا لأن "البنت سرّ امها".

"خذ البنت من أحضان امها"

"قلب القدرة على فمها والبنت تشبه امها"

وتحذر الامثال من المرأة الجميلة وان كان الانسان بفطرته يميل إلى كل ما هو جميل في الكون (...) ذلك لأن الاطمئنان إلى اخلاقها واخلاصها وثقتها مستبعد، فإعجابها بجمالها قد يدفعها إلى التعالي والغطرسة والاعجاب بالنفس أو اعجاب الآخر بها، وتصبح مصدر تعب لزوجها

"خنفوسة تنوس خير من غزالة تهوس"

أمّا مقاييس الجمال المرغوب فيها فهي تلك التي لا يمكن أن يطلع عليها إلا الزوج.

"لمرا المزغبة بحال الدار المذهبة"

"الخبز من الزرع والبقرة من الضرع والمرا من الكراع"

ويبقى الحياء من الصفات التي يجب أن تتوفر فيها

"زين المرا في ضياها وزين العاتق في حياها"

"لا حيا ولا من يجي بكري"

ورغم كل ما يمكن أن تغدقه عليها الامثال من النواقص والعيوب والتخوف من سلوكها فإن تواجدها في البيت أمر مرغوب فيه، بدونها يتحول إلى خراب ودمار

"المرا عمارة ولو تكون حمارة "

ويجوز استشارتها لكن مع العزم مسبقا على عدم الأخذ برأيها ألم توصف بأنها ناقصة عقل! و!!!

"شاوروهن وخالفوهن"

"شاورها، لاتعمل بريها"

"طاعة النسا ندامة"

"الراجل بن الراجل الي عمرو ما يشاور مراته"

لا تتردد الامثال في اختزال كيان المراة الغني والمتعدد الابعاد وتحويلها إلى مجرد آلة للتفريخ وأداة للانجاب الذي يعتبر الغاية الاولى من الزواج. بواسطته تضمن استقرار الزوج في البيت، ودوام الحياة الزوجية، وترتفع مكانتها في الاسرة، خصوصا إذا هلّ ولي العهد. وبتكراره يتجدد شبابها ونضارتها.

"من بركة المراة سرعة تزويجها وسرعة رحمها"

"الامهات أوعية"

"انجب من خرشب"

"انجب من خبيئة"

"انجب من ام المومنين"

وهؤلاء نساء انجبن سادة ورؤساء

"ياللي عاجبك الزين واللباس، رد بالك للحبالة والنفاس"

وإذا عجزت عن الانجاب فلا قيمة لها ، ولا فائدة ترجى من ورائها فأنوثتها تقدر بالخصوبة، ويجب استبدالها بغيرها، أما إذا كان العاجز عن الانجاب هو الزوج فعليها أن ترضى بنصيبها وتستكين لقدرها وترحب بالتي ستدخل ضرة عليها.

"المرا بلا أولاد بحال الخيمة بلا وتاد"

وارتبط مفهوم الجنس بالتناسل في ثقافة لا ترى في المرأة سوى مجرد سلعة انتاجية، وتعجز عن النظر إلى الجنس كفعل انساني يرتبط بكيان الانسان من أجل قوة النشاط الفيزيولوجي والعقلي والروحي، فالطبيعة خلقت الرغبة الجنسية لاحداث عملية النمو والارتقاء، ودفعها إلى الأمام، والتناسل ليس سوى إحدى وظائف الجنس المتعددة الشاملة لكل مكونات هذا الإنسان [11] تحت تأثير اسطورة الاتحاد الاولي بين السماء والارض. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الاتحاد في قوله تعالى : «**أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يومنون**" [12] .

وربط الانسان منذ البداية بين خصوبة الارض وخصوبة رحم المرأة وكلاهما ضرورة حياتية : خصوبة المرأة بالانجاب ؛ ـ والانجاب يجدد الانوثة ـ من أجل العمل وحفظ النوع، وخصوبة الارض من أجل الغذاء لضمان البقاء.

يقول تعالى : «**نساؤكم حرث لكم فاتو ا حرثكم أنى شئتم**» [13]

وعن طريق الفعل الجنسي تتم عملية الحرث والارتواء بالحيوان المنوي لتحصل عملية الانجاب.

وعن طريق حراثة الارض بوضع البذرة تتم عملية الزراعة. فالحراثة قاسم مشترك بين الارض والمرأة، وسلبية هذه الاخيرة في العملية الجنسية

---

11 ـ الكسيس كاربل : "الانسان ذلك المجهول"، ترجمة عامل سفيق ص 78

12 ـ سورة الأنبياء الآية 30

13 ـ سورة البقرة الآية 23

واضحة قد تتخلص منها نسبيا بتأمين الوريث الشرعي للزوج، وإلا فوضعها يفسره الحديث "لحصير في ناحية البيت خير من امراة لا تلد".

"المرا بلا ولاد بحال الخيمة بلا وتاد"

وتنشأ الفتاة منذ صغرها متشبعة بهذه المفاهيم التي تنقشها الاسرة ويصقلها المجتمع في ذهنها، وتسيطر عليها لدرجة اقتناعها ان دورها في الحياة يتحدد بالزواج والقدرة على الانجاب وتتضاءل بقية الادوار في عينها.

لم تغفر الامثال للمرأة كونها الاداة التي اتخذها الشيطان وسيلة لايقاع الانسان في الشر، بل تعتبر الشيطان ثالث الجنسين، وبالتالي فالاطمئنان إلى سلوكها غير وارد وتعهدها بالتقويم والتهذيب لضبطه بكيفية تدريجية أمر لابد منه.

"الضربة للسارية والمعنى للجارية"

"علق عصاك حيث يراها أهل الدار"

" انتر الصريمة " (تحكم في مقود الدّابة)

"المرا بحال السجادة ما تنظف غير بالخبيط"

وكلما حاولت التمرد أو الخروج عن الحدود التي سطرت لها يزداد التفنن في عقابها بما هو أقسى من مجرد الضرب المادي إلى الضرب المعنوي بإذلالها وإحباطها عن طريق الزواج بأخرى أو الطلاق أو الإهمال والإكراه

"مراة المنحوس، ماهي مطلقة ، ماهي عروس"

"اضرب المرا بالمرا ياولد لمرا*

حك المرا بأخرى*

* البرا : وثيقة الطلاق

* جتها بضرة

ألصقت الامثال بالمراة الخيانة والمكر والغدر مما يورث عند الرجل الشك والغيرة والوساوس.

"الى سلمت البنت من العار تجيب العدو للدار"

وهذه النقائص لا تحول وعشقها، بل الإكثار منها إشباعاً للغريزة (...) ذلك أن فحولة الرجل تقاس بالقدرة الجنسية التي يعكسها التعدد الذي يؤكد القدرة اللبيدية والرغبة في التجديد، فالعربي والملل لا يلتقيان .

صاحب واحدة اذا مرضت مرض واذا حاضت حاض

صاحب اثنتين بين جمرتين ايهما ادركته احرقته

صاحب ثلاثة يبيت كل ليلة في تربة

صاحب اربعة عروس كل ليلة

من داخل الثقافة العربية يمارس على المرأة القمع النفسي والمعرفي والجنسي لاشتمالها على ما يكفي من الآداب الاجتماعية والمبادئ الشعائرية لانماء ذهنية معادية لها (القتل، الخطف، الاغتصاب، الضرب، التعدد، الطلاق، الختان، الحجاب ...) والمثل كمنظومة معرفية وكحلقة من حلقات فكرية وموقفية تستخلص من الفعل الاجتماعي وتتواصل معه وتحمل مفاهيمه التي تنال منها ومن انسانيتها وكرامتها وإن صادف وجود الفضائل عندها فمردها إلى الرجل الذي احسن تعهدها.

"الفرس من خيالها والمرا من رجالها"

والرسول (ص) يؤكد أن الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة. وفي القرآن «**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة**

من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا» [14] .

ما يستهوي الرجل ويسلب عقله : النساء، البنون، الذهب، الفضة، الخيل، الانعام، الحرث.

وسئل أعرابي عن معنى السرور فقال : "دار قوراء، وامرأة حسناء، وفرس مربوطة بالفناء"

السروت = بيت جميل + امرأة جميلة+ فرس

اللذات اربع : البناء، النساء، الطلاء، الحناء

وسبق أن رأينا الخبز، البقرة، المرأة (الكل للاستهلاك)

ورغم ما يمارس على المرأة من أنواع الاهانة والاذلال فلا تملك لنفسها سوى الخضوع والخنوع والصبر وتحمل نكد العيش للاحتفاظ بالزوج والبيت، ولو باللجوء إلى السحر والشعوذة والتماس بركة الأولياء والصالحين، بتقديم الهدايا والقرابين لان حياتها لا تكتسب الاهمية إلا في فضاء الزواج، خارج هذا الفضاء تفقد جزء من انسانيتها لذا تلقن منذ صغرها أن تكون موضوعا للرغبة الجنسية.

المرأة إلى صبرت دارها عمرت"

"جهنم زوجي ولا جنة اهلي"

أما المطلقة أو الارملة فلا تجني في مجتمع يبني ارتباطه بالمرأة على إلزامية البكارة غير خيبة الأمل والصراع النفسي لأنها معيار شرفها ونظافتها واستقامتها. وتتحمل مسؤولية هذا الوضع الذي لم تختره وإنما فرض عليها.

14- سورة آل عمران الآية 14

إذ بفقدانها الزوج الذي تستمد منه مكانتها واحترام المجتمع تنبذ كالبعير الاجرب : "أشقى من مطلقة"

"لحم الهجالة مسوس وخا ديرلو الملح قلبي عافو"

بل تتدنى قيمتها لدرجة تصبح معها غير صالحة لا لنفسها ولا لغيرها.

"الهجالة ربات عجل ما فلح، ربات كلب ما نبح"

وفي غياب الزوج الذي منه تستمد قيمة وجودها فعليها أن تهمل نفسها وتودع أفراحها لحين عودته.

"هاك الغرايب المرا مكحلة والراجل غايب"، حيث تتكيف ومزاجه.

" الرجال فالحركة غابية والنسا فالديور سايبة .

ومن وصايا أم لابنتها :

"إياك والاكتئاب إذا كان فرحا والفرح إذا كان كئيبا واحفظي عني خصالا عشرا :

حسن الصحبة بالقناعة ، وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة ، التفقد لمواضع عينيه ، والتعهد لمواضع أنفه ، الحفظ لماله، والارعاء على حشمه وعياله، التعهد لوقت طعامه ، والهدوء والسكون عند منامه، لا تفشي له سرا ، ولا تعصي له أمرا .

ولحساسية العربي للشرف يتم التركيز في مفهومه على حسب المرأة : عذرية البنت وعفة الزوجة، ويعلق شرف العائلة كلها على هذا المخلوق الضعيف الناقص العقل والادراك،

" المرأة شعر طويل وعقل قصير"

"المرا بنصف عقل"

" الي بغا العذاب يرافق النسا والكلاب"

التابع الملحق كسلعة لها قيمتها في السوق الاجتماعية. ومفهوم الشرف نفسه يكشف عن مفارقات غريبة إذ لا ترتبط حساسيته كما يقول "باتاي" بالاحساس بالذنب أو الاثم عند الخطإ كشعور يتعلق بالفرد لذاته، بضميره ، وإنما هي ترتبط بالاساس بالخزي أي بعلاقة الفرد بالآخرين. ومن تم فإن أمرا مخلا بالشرف يمكن أن يمرّ بهدوء دون أن يسبب انزعاجا إذا لم يصل إلى علم الآخرين فما يهم ليس أن يكون الانسان راضيا على نفسه بل أن يحافظ على "ماء الوجه" كما أن صراع القيم والاخلاق يخضعان لسلطان المادة والجاه. فقد اشتهرت هند بنت الخس بالزنا وكل ما عوقبت به هو اللوم اللطيف الذي لا يخدش الشعور.

"اشغل من ذات النحيين" [15]

"رويد لغزو ينمزق" [16]

" بمثل جارية فلتزن الزانية سرا وعلانية "

وتشطر الامثال المرأة بين الزوج والحبيب فله

النصف الاسفل وللحبيب النصف الأعلى.

قيل لأعرابي : ما الذي ينال أحدكم من عشيقته إذا خلا بها ؟

قال : اللمس والقبل والحديث

---

15 ـ الميداني المجمع ج 1 ص 375

16 المستقصي ج 1 ص 99 ـ الميداني المجمع ج 1 ص 376

قيل له : فهل يطؤها

قال : بأبي أنت وأمي ليس هذا عاشق بل طالب ولد. [17]

وسرعان ما تخون الزوج ولا تعبا بالنتائج

"لاتأمن المرأة على أي رجل مهما كان مسنا ودميما"

ولا تكتفي الامثال كنواة لإيديولوجية ذكورية بالتحامل على المرأة وإغراقها في بحر من النقائص، على رأسها الخيانة والغدر وسوء المعاملة، والتخويف من سلوكها الانثوي الملتوي وطبيعتها المائلة للانحراف، بل تصر على ختانها للقضاء على شهوتها المتاحجة

"امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة"

"الي بغا العذاب، يرافق النسا والكلاب"

" تقول للجن اطلع ولا نهبط لك"

"يا ابن مقطعة البضور"

"اعص هواك والنساء واصنع ماشئت"

" كل بلية سببها ولية"

ولو طفت العالم كله ما وجدت بينهن صالحة، لأن الغالب عليهن سوء الخلق.

17- وقال الشاعر :

فللخل شطر مطلق من عقاله ... وللبعل شطر ما ينال منيع

وأنشد أبو عمرو بن العلاء

لها نصفان من حل وبل ... و نصف كالبحيرة ما يهاج

"مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الاعصم بين مائة غراب".

ولا تتردد الامثال في اغراقها في أنماط انحلالية . أما الشر فملازم لها في حبها وفي بغضها .

المرأة إذا أحبتك آذتك

وإذا بغضتك خانتك [18] .

أما جسدها فيبقى من أهم المحاور التي تناولتها الأمثال، وأولته أهمية كبرى. وتتناوله في أدق تفاصيله خصوصا الآلة التي "تنتج" الولد وتمنح اللذة، وهو اهتمام الرجل في الواقع لأن الامثال السائدة في المجتمع حول المرأة هي أفكاره، بصفته عنصر الانتاج، والاكثر خبرة وباعتبار أنها تشكل تابعا يتحكم فيه بشتى الطرق. أمثال لا يمكن تحليلها بعيدا عن الوضع الاقتصادي الاجتماعي السياسي، والظروف الاستبدادية عبر مسيرة

18- يقول الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك فلا تكن
جزوعا إذا بانت فسوف تبين

وإن أعطتك الليان فإنها
لغيرك من طلابها سوف تلين

وخنها إذا كانت تفي لك إنها
على قدم الايام سوف تخون

وإن خفت أن ليس تنقض عهدها
فليس لمخضوب البنان يمين

وأنشد العقاد :

خل الملام فليس يثنيها حب الخداع طبيعة فيها
هو شرها وطلاء زينتها ورياضة للنفس يحييها
فما فيهن مخلصة لأخرى وما فيهن مخلصة لالف

تاريخية، تحمل الملامح الفكرية لعصر ما قبل الدعوة الاسلامية، حيث كان للرجل على زوجته وأبنائه حق الحياة والموت وحق البيع والرهن. ويبدو أن المرأة الرمكاء كانت مرغوبة لاعتقادهم أن الرامك بتضيييقه القبل يساهم في اخراج الطفل صلب البنية، مما جعل النساء يلجأن لتضييق القبل بواسطته، وحشوه بالصبر المخلوط بالرامك لأنه مبعث شعور الرجل بمزيد من اللذة لينعم برضاهن ويضمن إخلاصهن قيل لأحدهم : أي النساء أحب إليك ؟

قال :"البيضاء وسيمة، الرمكاء جسيمة، هؤلاء امهات الرجال" واستفسرت أخرى طليقها : يا هذا لم طلقتني وقد كنت لك ناصحة، وعليك مشفقة، وما في عيب إلا ضيق بجبهتي.

قال : "لو كان الضيق في حيرك ما طلقتك."

وقيل لأخرى طلقت مرارا مالك تطلقين أبدا.

قالت : "يريدون الضيق ضيق الله عليهم."

وتعكس الامثال سطحية العلاقة القائمة بين الجنسين والمبنية أساسا على الدونية والسلبية والتشييء مما يدفع المرأة إلى المزيد من الاهتمام بجسدها أكثرمن اهتمامها بعقلها لتطفئ شهيته ولتزداد الرغبة فيها، لانه لا حيلة لها سوى التكيف والخضوع في مجتمع ينتج ثقافة ذات نزعة يجبرها على الاقتناع بسلبيتها التي تعود إلى جنسها الانثوي، وصلاحها الذي لا يتعدى ضمان النسل والاستمتاع المركز حول ذاتها لكونها سجينة الافكار السائدة.

"قري ولدك فوق الحصير، وقري امراتك فوق السرير"

وقال أعرابي : أفضل النساء ، أطولهن إذا قامت،

أعظمهن إذا قعدت،

أصدقهن إذا تابت،

وإذا ضحكت تبسمت،

وإذا غضبت حلِمت،

التي تطيع زوجها وتلتزم بيتها،

العزيزة في قومها الذليلة في نفسها ،

الودود الولود التي كل أمرها محمود.

وحينما خطب الرسول (ص) عائشة كانت نحيفة فأرادت أمها أن تسمنها لدخولها فأطعمتها القثاء بالرطب، فسمنت كأحسن السمن .

وسأل مالك الاشتر علي ابن ابي طالب،

كيف وجد أمير المومنين امراته ؟

قال : كخير النساء إلا أنها جبّاء.

قال : وهل يريد الرجال في النساء غير ذلك.

قال : لا حتى تدفئ الصِقيع وتروي الرضيع .

وقيل في محاسن المرأة : مدمجة الخصر، لذيذة العناق، طيبة النكهة حلوة العينين، ساحرة الطرف، كأن سرتها مدهى، وكأن فاها خاتم، وكأن ثدييها حقان، وكأن عنقها ابريق فضة.

وأقل ما يكون التمتع بها أربعون عاما، أما إذا تعدتها فيجب القاؤها في سلة المهملات .

"فإذا أردت التفخيد فارداف وثيرة وأعجاز بارزة، وإن أردت العناق فالثدي النواهد."

وقال عبد الملك بن مروان الذي أصيب بالتخمة في سوق الجواري وبيوت الحرائر : "من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أرادها للولد فليتخذها فارسية، ومن أرادها للخدمة فليتخذها رومية."

أكثر من ذلك جرد الموروث المرأة من الصفات الروحية

تكره ذكر الله في بيتها

وهي إلى الفحشاء مشتاقة

إذا ذكر الخير فمالها

من جمل فيه ولاناقة

مقدامة في الشر سباقه

وهي تبغي الله على فاقة

وألغى دورها الفكري والانتاجي مركزا على مفاتنها ومواقع الجمال فيها كموضوع جنسي لا غير.

"ماللنساء والخطابة والكتابة"

"هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابة"

وبلغ الترف والغناء والخمر أقصاه في بلاط الأمويين الذين حولوا المرأة إلى قطيع يقول صلاح المنجد

إن الخليفة هشام بن عبد الملك قد تمتع بالنساء حتى قال :

"أتيت النساء حتى ما أبالي أتيت امرأة أو حائطا"

وقبل هذه المرحلة التاريخية استطاعت أميمة بنت الدمينة أن تنقل في عتابها صورة المجتمع عن المرأة في شعر أنيق حينما تجنى عليها حبيبها الذي زارها بعد غياب ؛ وهو دفاع لا يدخل في صميم قضايا المرأة التاريخية.

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني   واشمت بي من كان فيك يلـــوم

وابرزتني للناس ثم تركتنـــــي   لهم عرضا أرضي وأنت سليـــــم

فلو أن قولا يكلم الجنس قديـــدا   فجسمي من أقوال الوشاة كليم

ولم يكتف صانعو الامثال من تشطير المرأة وتصنيفها وتشييئها، بل صاغوا أمثالا على لسانها تعترف فيها بأخطائها وبأحقـيّة الذكر عليها في الرعاية والحماية المتحققة تاريخيا عبر امتلاكه كل شيء وترويض الطبيعة بقوة العمل والثقافة والتشريع وفقا لاغراضه ومصالحه.

"لو كان الخير في ما يتزوج رجلي علي"

فسيفساء مُفبْركة من الامثال نحتها الرجل تحت تأثير نزعته ليحمي تفوقه المكتسب عبر التاريخ وليعزز مواقفه في الحاضر والمستقبل، تبدو من خلالها المرأة غائبة عن واقع مجتمعها، مبعدة عن قضاياه التنموية، لا تحيا وجودها بقدر ما تتحول إلى ظل للزوج ومجرد صدى له بادلة وبكل سذاجة الجهد لتتلاءم داخليا وخارجيا مع ذوقه مصححة نفسها وفق متطلباته.

قد تكون في أصلها إنتاجا فرديا، لا أساس له في الواقع التاريخي، لكنها تتضمن ما يكفي لانماء ذهنية التباسية معادية للمرأة.

هذا التراكم التراثي في شطره الكبير يمسخ شخصيتها ويطبعها وفق منهج تلفيقي ـ تلطيفي ـ بتناقضات وثنائيات متناغمة (انجاب، عقم، خير، شر، قبح، جمال، طاعة، تمرد بكارة ...) استمد منه مشروعيته منذ نشوء "الحمى" ومن العادات والتقاليد والقوانين التي ضخمت الفروق وبعدت

المسافات ،مدعمة بثقافة قمعية سلطوية تجبرها اما على التبعية أوالاقصاء !! أن تكون موضوعا جنسيا أو لا تكون حسب تعبير هشام شرابي. فإذا سلـّمنا أن المرأة تخلق المتاعب فلمَ لا نسلم أن الرجل كذلك. وإذا سلمنا أنها مطبوعة على الخيانة والغدر فلم لا نسلم بأنه هو كذلك، أليست طبيعتها الانسانية سابقة عن الطبيعة الانثوية !! فشخصية الانسان ذكرا كان أو أنثى هي نتاج التنشئة الاجتماعية والثقافية والحضارية، والتربية التي ننشئ عليها أطفالنا تؤسس للتباين والتمييز بين الجنسين. فمن الترانيم التي تغنى للبنات :

كريمة يحبها أبوها ،

مليحة العينين عذب فوها،

لا تحسن السب وإن سبوها.

ومن الترانيم التي تغنى للاطفال :

ثكلت نفسي وثكلت بكري،

إن لم يسد فهرا وغير فهر،

بالحسب الفدّ وبذْل الوفر.

وتعمل التنشئة الاجتماعية على إدخال القيم والعادات في نفس الفرد بالشكل الذي ينسجم والثقافة التي يعيشها فينشأ معتزا بها منذ طفولته، لا يستطيع التخلص منها لأنها تغلغلت في نفسه واضحت من مكونات شخصيته الرئيسية، وتظل المرأة بالرغم منها حارسة أمينة لهذه العادات والتقاليد وأنماط السلوك، تلقنها لأطفالها عبر الحياة اليومية، لتساهم وبعمق في مقاومة أي تغيير وتحديث، فنحن نربي المرأة على أن تفهم الرجل وتلبي طلباته وحاجياته لا عن رضا واقتناع بل عن اضطرار وقهر.

"العين ما تعلا على الحاجب"

وإذا حدث خلاف بين الاثنين نبحث عن الخطإ في جانبها أولا ولا نتجه صوبه إلا إذا تعذر وجود ما يدينها.

ونربي الرجل على أن تفهمه المرأة وتخدمه وعندما يصدر منه خطأ ننسج له الاعذار ، نحن النساء كأمهات أو أخوات أو خالات أو عمات.

وهذه إشكالية ليس من السهل إيجاد حل لها. لأن التغيير على المستوى الثقافي لا يحصل بقفزات ؛ والتغيرات الفكرية السريعة التي تطرأ على شعب من الشعوب لا تلبث أن تزول بزوال الظروف التي أوجدتها، لتعود إلى تقاليدها السابقة.

ومهما بلغت سماحة الرجل وكيف ما كانت ثقافته ووعيه فهو لا يزال غير مستعد للتنازل بسهولة عما أورثته إياه قرونا من التحكم في المرأة، وضمنيا ما أورثه لنفسه يوم كان يتحكم في حياتها طبقا لمعطيات استبدادية تسلطية معروفة في التاريخ القديم !!

شهرزاد وانهار دماء شهريار

وإذا كانت شهرزاد قد سكتت عن الكلام المباح فإن الحديث عن المرأة كقضية اجتماعية سيستمر إلى الأبد متجاوزا حدود الزمان والمكان.

حينما نريد استلهام الموروث الشعبي برموزه الفنية والاسطورية تأتي ألف ليلة وليلة، وهي من ماثوراتنا الخالدة في الصدارة، باعتبارها ثمرة الابداع الشعبي العربي الاسلامي الذي يعكس آلامه واحلامه وتطلعاته ومثله العليا، وتكشف عن ملامح البيئة العربية بقسماتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والنفسية في العصر القروسطي. وباعتبارها سجلا لذاكرة الماضي وما يحفظه من أصالة نقف من خلالها على حياة المجتمع ونمط تفكيره، ومعاييره الاخلاقية، وعلاقاته الانسانية، ومواقفه تجاه الافراد حيث تبرز المرأة في السمة الهرمية المكونة للمجتمع العربي في العصر العباسي ـ وهي أقرب الآثار الفنية لتكون وثيقة لهذه البيئة، ـ ضمن القاعدة الاكثر استغلالا واستعبادا مع الجواري والرقيق والأقنان والعبيد والخصيان. وحيث المراتب الاجتماعية الطبقية واضحة الحدود والمعالم يحكمها التسلط والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، الذي يسود الرواية انطلاقا من قمة هرم السلطة. ولا غرابة في ذلك، فالعصر العباسي عصر توسع تجاري وثقافي، خصوصا عصر الرشيد الشغوف بالعلم والمعرفة والادب والشعر والنساء، وتشجيعه لأصحابه، ولجامعي النوادر(...) وحيث الجنس خاضع

1 - مجلة التراث الشعبي ص 21 عدد 493 سنة 1981

لذوي النفوذ السياسي أو التجاري : "في مدينة ميتة يتوغل فيها أبطال الحكاية ورواتها وجماهيرها ليغرقوا في جواهرها وأكياس يواقيتها ويتمتعوا بفراشها الوثير ودياجها وترفها، ويتلذذوا بثمارها وعيونها وخمورها وجمال جواريها وقصورها الرخامية والفضية والذهبية" [1] .

وإذا كان من الصعب إعادة تركيب النسيج المشكل للمحيط الاخلاقي والسوسيوثقافي الذي انبثقت عنه الليالي فمن المؤكد أنها خلاصة مركزة لحياة العرب المسلمين في فترة زمنية معينة تجلى فيها بوضوح شكل الحكم الذي يسوده بعد طبقي يمثل الملك قمة هرمه، فالحكام، فالحاشية. فعموم الناس. ووجد هذا التباين المكشوف تبريراته في الركام الاسطوري رغم المكانة الاجتماعية والثقافية العالية لاصحابه.

تؤسس الليالي فكريا وثقافيا واسطوريا للعلاقة بين الجنسين حيث المرأة في هذا المجتمع السلطوي تبحث عن مكان لها في الحياة.

فانطلاقا من الليلة الاولى إلى الليلة الواحدة بعد الالف، كان الصراع قائما بينها وبين الرجل، مادته الجنس، الربح أو الخسارة، التحرر أو البقاء، بقاء الجنس الانثوي الذي كان مهددا بالانقراض على يد الطاغية شهريار الذي فرض عليه قدره ... واتخذ هذا الصراع طابع التحدي والتكافؤ : صراع الحب والموت، صراع الطبقات.

* تحكي الليالي قصة أخوين ملكين عاش كل واحد منهما في مملكته مدة عشرين عاما.

* يشتاق الاخ الكبير لأخيه فيبعث وزيره يطلب منه زيارته. يخرج الملك شاه زمان طالبا بلاد أخيه، في نصف الليل يتذكر حاجة نسيها (خرزة الملك)، يعود إلى القصر ليأخذها فيجد زوجته راقدة في فراشه مع عبد أسود.

* تسود الدنيا في عينيه : زوجته، ملكيته الخاصة تعانق غيره، ومن ! عبد من عبيده ! يفكر : إذا كان هذا قد حدث وأنا لم أغادر المدينة بعد، فكيف حال هذه العاهرة إذا غبت مدة طويلة.

* يسل سيفه، ويضرب الاثنين معا، ويقتلها في الفراش .

* يواصل رحلته إلى أن يصل إلى مدينة أخيه والحادث الدرامي ينخر جسده في صمت(...) يصفر لونه، فيظن أخوه أن السبب هو بعده عن أهله وحنينه إلى مملكته.

* يصارحه يوما قائلا : يا أخي إن بداخلي جرحا .

* ينظم الاخ رحلة صيد ويقترح عليه الخروج معه عله يجد في ذلك ما يساعده على التئام جرحه واستعادة نشاطه، يابى الخروج ويفضل البقاء في القصر.

* وإذا المشهد نفسه يتكرر أمام عينيه، زوجة أخيه تفعل ما فعلته زوجته.

* بينما كان يطل من شبابيك القصر المشرفة على بستان أخيه، رأى زوجته وكانت آية في الحسن والجمال، تمشي وسط عشرين جارية وعشرين عبدا، حتى إذا وصلوا إلى فسقية، خلعوا ثيابهم وجلسوا إلى بعضهم البعض، وإذا بزوجة شهريار تنادي يا مسعود !

* يحضر عبد أسود فتعانقه ويعانقها، وتواقعه ويواقعها، كذلك باقي العبيد فعلوا بالجواري. ومازالوا في عناق وتقبيل وغيره حتى ولى النهار !!

* بلية أخيه خففت من بلواه، فاستعاد حيويته ونشاطه مما جعل أخوه يساله عن السر فيحكي له ما رآه.

* يتظاهر شهريار بالسفر قصد الصيد، ويأمر غلمانه بعدم الكشف عن مكانه لأحد، يتنكر ويبقى مختفيا في القصر مع أخيه.

* وإذا الاخوان يشاهدان معا ما تفعله الزوجة مع العبد، لكن شهريار يتحكم في نفسه ولا يقتل زوجته كما فعل شاه زمان.

* يخرجان معا ضاربان في الارض لمعرفة هل جرى لمثلهما من الملوك ما جرى لهما. لا حاجة لهما بالملك بعد خيانة المرأة لهما !! زناها أفضع من الموت ! حتى إذا وصلا إلى شجرة عند ها عين ماء بجانب البحر، اقتربا من العين وجلسا يستريحان. وإذا البحر قد هاج فصعدا إلى الشجرة.

* وإذا بجني طويل القامة عريض الهامة، واسع الصدر قد خرج من البحر المتلاطم الأمواج، على رأسه صندوق. اتجه نحو الشجرة وجلس تحتها وفتح الصندوق، أخرج منه علبة، ففتحها، فخرجت منها صبية عذراء بهية كأنها الشمس المضيئة. ووضع رأسه على ركبتها ونام.

* رفعت رأسها إلى الشجرة فلمحت الملكين، وأشارت عليهما بالنزول، والا نبهت عليهما الجني فيقتلهما شر قتلة.

* نزلا خوفا منها وراودتهما على نفسها، وهددتهما بالعفريت إذا لم يطيعا ويفعلا معها ما سبق أن فعلته زوجة كل واحد منهما مع عبد أسود.

* نفذا ما أمرتهما به خوفا من العفريت. فلما فرغا قالت لهما : قفا. واخرجت من جيبها كيسا، واخرجت منه عقدا فيه خمس مائة وسبعون خاتما، فقالت لهما : أ تدرون ما هذه ؟ قالا : لا. قالت أصحاب هذه الخواتم كلهم كانو يفعلون بي على غفلة من هذا العفريت، فاعطياني خاتميكما انتما الاثنان. فاعطياها الخاتمين من أيديهما فقالت لهما : إن هذا العفريت اختطفني ليلة عرسي، ثم وضعني في علبة، ووضع العلبة داخل الصندوق. ورص على الصندوق سبعة أقفال، وألقاه في قاع البحر الاجاج المتلاطم الامواج ويعلم أن المرأة منا إذا أرادت أمرا لم يغلبها شيء.

* كلاهما وقع منهما وقع النار على سيدنا إبراهيم وقالا لبعضهما، إذا كان هذا عفريتا وجرى له أعظم مما جرى لنا، فهذا شيء يخفف عنا آلامنا ويسلينا. ثم انصرفا إلى مدينة شهريار، ودخل قصره، ورمى عنق زوجته ثم أعناق الجواري والعبيد.

"وقرر أن يتزوج كل ليلة عذراء، يستهلكها ليلا ويقتلها في ليلتها.

* بعد ثلاث سنوات يصاب الناس بالهلع، إذ لم تبق عذراء في سن الوطء، ويامر الملك وزيره أن ياتيه ببنت على عادته.

* يدخل الوزير إلى بيته كئيبا مهموما لأنه لن يستطيع إرضاء الملك. تستفسره شهرزاد عن سبب قلقه وتوتره. يخبرها وتنشده الابيات الآتية

قل لمن يحمل هـمـــا إن هما لا يـــــدوم

مثلما يفنى السرور هكذا تنفني الهموم

تركب التحدي المحفوف بالمخاطر والاهوال وتطلب من أبيها تزويجها بالملك الجبار، الذائع الصيت، الذي ينتقم كل ليلة لذكورته وسلطته القضيبية المغتصبة. وتقرر باختيار أن تكون في مواجهة يومية لا مع الموت فحسب، بل مع القمع الجسدي والجنسي والاجتماعي، إما أن تحافظ على استمرار حياتها وحياة بنات جنسها أو أن تكون فداء وتخلصهن من بطش الملك : الوسيلة إبداع قصص من وحي الخيال ذات وظيفة انقاذية، لنفسها ولبنات جنسها. وتنجح بامتياز كراوية ماهرة ذكية تمكنت من التسلل إلى وجدان الملك والاستيلاء عليه، واضعة الحد لبحار الدماء التي كان يسبح فيها، بترويض شهيته المتوحشة وتذليل غضبه السوداوي المرير بالتحليق في أجواء الخيال عبر "فبركة" قصص غريبة، تصف العالم من خلال فكرها وفطنتها وقدرتها الفنية، ساعدها في أداء هذه المهمة الشاقة :

ـ استعدادها الفطري الثقافي كميزة لم تنفرد بها عن نساء عصرها بل انفردت بها فقط عن اللواتي سقن إلى الموت كالقطيع.

ـ اطلاعها الواسع على كتب التاريخ وسير الملوك، وقدرتها على معرفة حالة شهريار النفسية، لان الحكاية تقتضي أن يكون السامع على مستوى السارد ليشد انتباهه.

ـ اعتمادها في عرض احداث حكاياتها على السرد وعنصر التشويق والمفاجأة لما له من دور في شد انتباه المستمع إليها.

ـ تهيئته نفسياحفاظا على حياتها، وهو السبب الذي جعلها لا تلجأ إلى حكاية بعينها تخدم قضيتها كامرأة مهددة بالقتل ، بل إلى حكايات متنوعة : غرامية، بطولية، خرافية، عن الملوك، والأمراء، والسلاطين، والتجار والجواري، والجن، والحيوانات. حكايات سحرية رومانسية تاريخية لا تخلو من غدر النساء ومكرهن. وهي تكتسب ثقته، كانت تذكره بأخرى ذات أطوار ومواقف ومراحل مختلفة، عن وفائهن وذكائهن مستجيبة لشعاره "احك لي قصة وإلا قتلتك"

ـ اعتمادها على تأجيل بقية الحكاية في اللحظة المثيرة من لحظاتها إلى اليوم الموالي عن قصد، وعدم قطع الرواية في نهاية الليلة تشويقا له. وبهذه الطريقة تضمن تأجيل قتلها، وتضيف حبة إلى عقد حياتها، لتصبح العنصر الايجابي الفعال والمؤثر بقوة في شخص الملك والمتحكم في علاقتهما. فهي الراوية الممتلكة لأدوات الإبداع، القادرة على سحب البساط من شهريار الذي تحول من ملك شرقي مستبد ثائر متسلط لا أحد يستطيع كبح جماحه لكونه يحتل قمة الهرم، وهو موقع يمكنه لا من مصادرة الناس كأموال فحسب، بل كاحاسيس ومشاعر، وحياة المرأة التي لم ترتكب الخيانة الزوجية فحسب بل الخيانة الطبقية، إلى متلقي هادئ رزين يستأنس بالعالم

الخيالي المثخن بمواضع الخيال الجنسي الذي يتحكم بآلياته التاجر كرمز للطبقة المسيطرة. وتتمكن شهرزاد المرأة لا بقوة الدهاء والمكر والاغراء الجنسي، والتحالف مع الشيطان لتوقع الملك في حبائلها كما في قصة السقوط، ولا باستغلال قوة العفريت، بل برصيدها الفكري ووعيها الاجتماعي وجذور الرفض المتأصلة فيها، واصرارها طيلة الالف ليلة وليلة على أن تتحدى التحدي وتنهي الصراع لصالح بنات جنسها، لتحقيق استمرارهن النوعي الذي كاد ينقطع على يد شهريار، وبتكسير الحواجز والقيود التي فرضتها أسباب اقتصادية سياسية منبهة النساء إلى إدراك أهمية دورهن كشريحة فاعلة مؤثرة ومسؤولة في المجتمع ودعامة أساسية من دعائمه. **وهي دعوة لا تخلو من مغزى سياسي واجتماعي عميق وصرخة ضد تحمل أنواع الظلم والقيد الطبقي والجنسي**، حتى إذا أنهت روايتها الواحدة بعد الالف مما يستوجب معها تنفيذ القتل في حقها، تكون قد أنجبت ثلاثة ذكور خلال الثلاثة سنوات التي استغرقتها الليالي. **موازاة مع إنجابها الفكري كان هناك إنجاب رحمي**، وبالتالي تكون نجاتها ناتجة عن القدرة على التكاثر قصصيا وذرية، خصوبة الفكر وخصوبة الرحم. وهي خاصية يلتقي فيها الجنسين. فكبار الشعراء يوصفون بالفحول. ولا يمكن الجزم بأولوية أحدهما على الآخر في الدور الذي يقومان به في تخليد النوع الذي لا يتم إلا عن طريق تعاون أعضاء الذكر والانثى، وتكون بذلك قد أثبتت تفوقها الاجتماعي عمليا، بعد أن استطاعت من خلال رواياتها أن تعيش في عالم لم تحقق فيه التوازن النفسي بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. وتبقى طموحاتها ورغباتها كامرأة لا تنفصل عن طموحات ورغبات بقية النساء.

لقد حملت شهرزاد ألف ليلة وليلة الكثير من احلامها وحركياتها وشهواتها المكبوتة وغير المكبوتة، التي تشكل في مجموعها تمردا على السلطة والنظام والقانون، بغية التخلص منها، وركبت المخاطر لتتحرر. ولم

يكن ذلك ممكنا لولا جذور الرفض التي تستقر في أعماقها. فالحكاية كجنس أدبي فرصة للحلم، وفيها يصبح المستحيل ممكنا وبواسطتها استطاعت أن تطلق صرخة احتجاج على :

ـ الاعراف والتقاليد والرقابة الاجتماعية، وتكسر قيود الزمان والمكان ـ نظام الحكم ذي الابعاد الضيقة الذي يمثل الملك أعلى قمته، يليه الأثرياء والتجار ورجال الاحياء والشرطة ـ النساء والعبيد والاماء وعامة الناس، وهي قاعدة الهرم التي تمثل التخريب والفوضى.

كما تتضمن الليالي ثورة تعلن المرأة من خلالها حقها في السلطة والملك ... هذا الحق الذي لا يمكن أن تمارسه إلا عبر الرجل أو في غيابه، آمرة ناهية متسلطة على من هم دونها ... هكذا تصرفت زوجة شاه زمان في غيابه واستدعت عبدا لتمارس معه في فراش الزوجية، رغبة في ممارسة الذات وتمردا على العلاقات الجنسية غير المتكافئة التي يباركها المجتمع. فالملكة لا تملك حرية التصرف إلا في غياب الملك.

إذا كانت الليالي جنة ساحرة مليئة بالخيال والمتعة، فإنها مليئة كذلك بالعذاب والقهر، وابرز ملامح الشرق الاسطوري الرومنسي المتخيل كدنيا للإغراء والرغبة، انه ارض النساء الكثيرات الجميلات، وارض الغيرة، حيث يجد فيه المكبوت فسحة للراحة والمتعة، بين أجساد رشيقة، تتمتع بكامل الغنج والطراوة والليونة والدلال، لتمارس تحريكاتها المتموجة التي خلقت من أجلها !! فإن الجانب المضمر من الحكايات غاص بكل ما في الحياة من طاقات متفجرة، كشفت عن حقيقة المرأة "الثائرة" الساعية إلى تحقيق وجودها، والمتمردة على النظام الاقطاعي المتصلب. لقد اعلنت شهرزاد من خلال الليالي العربية، رفضها للحجب السميكة التي تحاصرها، واطلقت صرخة احتجاج من أجل عالم خال من الاستغلال والظلم والقهر، باحثة عن حقها في الشراكة المتكافئة مع الرجل في الميادين التي احتكرها لنفسه،

وللعيش في عالم خال من ضغوط وقيود السلطة والرقابة الاجتماعية والتقاليد والعادات، عالم فيه تتحقق العدالة والكرامة والحرية والتوازن النفسي، لتحقيق رغبات الانسان عامة، لتصبح بذلك رمزا يتعدى المراة الشرقية بخمارها، ويحطم المقولة التي ترى مركز الاهمية فيها خارج الدماغ، لتصل إلى العقل والحكمة والمعرفة التي طمسها المجتمع وحجبتها أسوار الحريم.

وإذا كانت شهرزاد قد سكتت عن الكلام المباح فإن الحديث عن المرأة كقضية اجتماعية سيستمر إلى الأبد متجاوزا حدود الزمان والمكان. باحثة عن حقها في الشراكة المتكافأة مع الرجل.

جنسوية اللغة

اللغة هي حقيقة الفكر المباشرة
كارل ماركس

اللغة وسيلة من وسائل الاتصال بين الناس، وعامل أساسي لنشأة المعرفة الانسانية، وتطويرها أو جمودها، والكلمات ـ أصغر وحداتها ـ ليست أشياء غامضة خفية، بل هي أحداث في الزمان وفي المكان. اللغة ذاكرة الناس وحاملة الفكر والثقافة بالمعنى الانتربولوجي، وجزء لا يتجزأ من عملية التفكير.

وتتميز الثقافة العربية من بين سائر الثقافات الانسانية بالتواصل الحي والترابط الوثيق بين ما هو موروث مدون، وماهو مأثور يعيش في ذاكرة الناس، يتناقلونه عبر الاجيال، في تواصل واستمرار، دون انفصام، داخل المنظومة اللغوية للتعبير عن المقولات الفكرية للمجتمع في إطار وحدة مترابطة من العادات والتقاليد، تعكس ممارسة الانسان العربي لواقعه اليومي المعيش. يقول رينست كاسبرز «قد تتغير العادات والأفكار الدينية بمرور الزمن، أما كلمات هذه التراتيل وإيقاعها فإنها تبقى بغير تغير على الدوام، وعادة ما تنشد دون فهم لها» ويذهب (هـ. ج ولز) إلى أن " اللغة هي المحور الرئيسي لحركة التاريخ الانساني بأسره" وبالتالي فلا مناص من إخضاعها للبحث العلمي والتعامل معها كبضاعة، ونزع قدسيتها الزائفة لانها تخدم البيئة الطبقية التي عادة ما تحمي مصالحها باللجوء إلى الغيبيات. يؤكد مالينوفسكي «أن اللغة ـ أية لغة ـ لا تلعب فقط دور الحارس والحامي

للاسطورة والاديان بعامة، بل إن اللغة هي في حد ذاتها لعبة الحكم والحَفّـاظ الامين على الاوضاع الطبقية والاجتماعية» . **ولغتنا العربية وعاء للفكر الاسطوري الحامل لجذور التمييز الجنسي المستمر بين الذكورة والانوثة، والمحفور في المتخيل الشعبي، والحافظ لاصوله.**

فكلمة : التحريم، والحرمة والحريم والحرام ـ والحرامي ومشتقاتها، والقداسة والقدسية متجدرة في ثقافتنا. يضيف مالينوفسكي «**إن معنى الكلمات يهدف إلى وظيفتها أو منفعتها أو استخداماتها. فآفة العقل الغيبي والاسطوري تكمن في اللغة التي تبقى مكبلة بالأساطير وابنيتها اللغوية**». والاساطير اتخذت من المرأة رمزا للحياة والارض والخصب، وطوقتها بسلاسل من الافكار المسبقة والمحرمات التي تشل شخصيتها وتضعف فاعليتها. والدور الذي يمكن أن تلعبه اللغة في شكل الحضارة وصياغة الشخصية العربية جد عميق، باعتبارها الوعاء الرئيسي للمحافظة على الشخصية الثقافية، والعنصر الفعال في تطويرها. فالعلاقة بينهما قوية متلازمة، لا يمكن فصلها أو زعزعتها دون المس باحد الاطراف. ولتطوير الثقافة لابد من لغة حية متطورة قريبة من فهم الانسان، قادرة على التعبير عن مشاعره الجديدة، واحتواء آماله وطموحاته "لست أتصور لامة من الامم ثورة فكرية كاسحة للرواسب، الا أن تكون بدايتها نظرة عميقة عريضة تراجع بها اللغة وطرائق استخدامها لأن اللغة هي، الفكر، ومحال أن يتغير هذا بغير تلك [1]»

فالمرأة أسطوريا موضوع تحريم، وأصل الخطيئة ويمكنها أن تكون أي شيء ما عدا أن تكون إنسانا تاريخيا لها وضع اجتماعي وسياسي وثقافي .

---

1 - زكي نجيب محمود : تحديد الفكر العربي، ص 205 دار الشروق 1973

وتطوير اللغة ـ كبنية ثقافية ـ لا ينفصل عن سياسته تطوير المجتمع ككل، وتغيير العلاقات بين أفراده، ولا يمكن طرح قضية تطوير الفكر بمعزل عن التنمية وتطوير المجتمع لان ربط النضال من أجل تطوير الثقافة، بالنضال من أجل التنمية والتقدم، يعطي للبعد الثقافي الانساني قوة في الحركة التاريخية. فالتنمية لا قيمة لها اذا لم تتمحور حول أفكار جوهرية قوية كالحرية والكرامة والعدل والرفاهية والديموقراطية واحترام حقوق الفرد والجماعة كيفما كان نوعها ومصدرها. وبدون هذا تكون التنمية عملية مادية آلية جوفاء لا وزن لها، مجردة عن محيطها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

كيف تتعامل اللغة مع المرأة ؟

تقرر البنية القواعدية التراتب الجنسي، ويظهر ذلك في التطابق التام مع المذكر إذا وجد جنسا الذكر والانثى. في شرح ابن عقيل «**أصل الاسم أن يكون مذكرا والتأنيث فرع من التذكير ـ وهذا يذكرنا بحواء المشتقة من أحد اضلاع آدم، ولكون التذكير هو الاصل، استغنى الاسم المذكر عن علامات تدل على التذكير. ولكون التأنيث فرعا من التذكير افتقر إلى علامة تدل عليه وهي التاء والالف المقصورة** [1] .

ويلعب الجنس دورا قواعديا مماثلا للدور الذي يلعبه صاحبه في الحياة الفعلية، لذا تميل قواعد اللغة العربية إلى إبراز الذكورة مساهمة منها في أحكام الحصار التاريخي بالعلاقات غير الطبيعية وغير الانسانية وغير الحضارية بين الرجل وبين المرأة. يستخلص أبو حيان التوحيدي من الاسم المعرف وغير المعرف أو لوية الذكور.

---

1 - شرح ابن عقيل ج 2 ص 304 القاهرية 1931

«جرى حديث الذكور والاناث فقال الوزير : قد شرف الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله تعالى : يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. فقلت : في هذا انظر. قال : قدم الإناث كما قلت فنكّرَ، وأخر الذكور لكنه عرّفَ. وعلق مضيفا : التعريف بالتأخير أشرف في النكرة بالتقديم. ثم قال أو يزوجهم ذكرانا وإناثا. فجمع الجنسين بالتذكير مع تقديم الذكران" [1] .

فالجنس في قواعد اللغة العربية كما في واقع العالم العربي الاسلامي - غير المرتاح جنسيا - يتضمن تراتبا يوازي التراتب الجنسي وبالتالي تنقل اللغة للانسان منظومة جاهزة من القيم فتوحي ببعض التصنيفات التي - ربما لم يكن الانسان لينشئها لو أنه لم يكن يعرف هذه المنظومة !!!

ولم تنج البنية الصرفية بدورها من ممارسة نوع من الطائفية العنصرية ضد الانثى : فتاء التأنيث تميز بين المذكر والمؤنث ويلغي رجل واحد كيفما كان وضعه ومستواه مجتمعا من النساء كيفما كان وضعهن ومستواهن !!!

فاللغة تعكس مستوى وعي الجماعة التي ابتدعتها وسلطتها لأنها لا تتطور بمعزل عن الناطقين بها، والوعي الانساني لا يتطور بمعزل عنها ولغتنا تكشف عن ظاهرة الانقسام الطبقي للمجتمع الابوي المستنبط من الفكر الاسطوري المبني على ثوابت دونية المرأة وهامشيتها واستيلابها ولا تاريخيتها، ولا تسعفها في الحديث عن التحرر، **ولسان العرب الذي نزل به القرآن بدوره يغلب صيغة المذكر على المؤنث .***

---

1 - أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ج 1 ص 101

جانيت هولمز لسانية اجتماعية انجليزية بجامعة فيكوريا (نيوزيلندة) مقتطف في مداخلتها في المؤتمر 11 اللسانيات الاجتماعي

وتعزو الباحثة اللسانية "جانيت هولمز" التباين بين الجنسين في طريقة الكلام إلى التباينات الاجتماعية. وتعكس"عمليات التفاعل" أو عمليات التنشئة الاجتماعية لذى الذكور والإناث مما يستدعي الوعي بالتأثيرات اللسنية لهاته الأنواع من الصيرورات. كما أن هذه الفروقات اللغوية بين الذكور والإناث تعكس بنيات السلطة داخل المجتمع، ويتعين إدراك مدى السلطة التي تمارسها الجماعة المسيطرة من خلال طرق لسنية، وحرمان الجماعة التابعة الخاضعة من الوصول إلى هاته السلطة وبات لذى النساء من حيث كونهن جماعة ميل لتبعية الرجل، ونتيجة لذلك كان حظهن من الوصول إلى بعض الأنواع من الخطابات ضئيلا. فهن لايساهمن بالقدر الذي يساهم به الرجل في بعض المقامات الاجتماعية، كما يحاول الرجال حرمانهن من حصصهن المشروعة في الكلام. ولم يمنحن في الكثير من المقامات الفرصة للتعبير عن أفكارهن، وللنجاح في اجتذاب الأنظار إليهن.

قد يبذو هذا على المستوى الميكروثقافي مجرد سكوت من جانب النساء لكن على المستوى الماكروثقافي وهذا سبب اهتمام علماء اللسنيات من الإناث باكتشاف هذا المجال. فإذا كنت تمثل الجماعة المسيطر عليها، وتحس بالتمييز والقمع والقيد من قبل الظروف الخطابية فمن المحتمل جدا أن يكون لديك اهتمام في اكتشاف إن سلطة الخطاب النسائي أضعف من الخطاب الرجالي وأنواع تقنيات وعمليات الخطاب التي تثبت وضعيتك المقموعة والمقيدة. ومن تم فمحتمل أن يكون للنساء دافع قوى لدراسة هذه الأنواع من الصيرورات والأنماط والبنيات.

عميدة المناضلات

ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط
فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه الكثير

رواه الترمذي بسند صحيح

تميزت عائشة من بين سائر زوجات الرسول (ص) بالخوض في غمار الحياة العامة للمسلمين بجميع مستوياتها. وكان لها حضور علمي، ونفوذ سياسي قوي، ومكانة بارزة في الدولة الإسلامية، التي لم تعدم مشاركة المرأة منذ ظهورها منذ سنواتها الأولى، انطلاقا من التنظيم السري ذي التكتيك البسيط الذي سيتوسع لتصل قاعدته في غضون الثلاث سنوات الأولى إلى ستين رجلا وعشر نساء، شكلوا النواة الرئيسية المنظمة اجتماعيا في دارالأرقم بن الأرقم. من هذه النواة استطاع محمد (ص) أن يجهر بالدعوة في أهل مكة الذين شاقوه وماروه لينتقل بعد وفاة السند المدعم (الزوجة والعم) إلى الطائف التي لم يجد بها غير عذاب الإيذاء ومرارة الخيبة، من أهل ثقيف لأنه كانت لهم مصالح اقتصادية مع قريش، ليبدأ مرحلة ثانية بعد الهجرة الأولى لبعض المسلمين والمسلمات إلى الحبشة، في السنة الخامسة من نزول الوحي، يعرض نفسه على الوفود القادمة إلى مكة في موسم الحج من مختلف الجهات لأداء مناسكه، كنبي حامل لرسالة سماوية جديدة، زاده الإقناع، والتنديد بتكديس الثروات في أيدي الأقلية من تجار قريش. وجد استجابة من وفود أهل يثرب الذين بايعوه على أن يفدوه كما يفدون أهلهم وأبناءهم بعد أن قبلوا الدعوة، ومهدوا له طريق

الهجرة ليصبح القائد العسكري والسياسي للمهاجرين والأنصار في المدينة، ويجمع بين يديه السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وكانت هذه المرحلة إيذانا بتحول جديد في تاريخ الإسلام بعد تمكنه من إحلال الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية العشائرية " إن هذه أمتكم أمة واحدة "[2] وأنا ربكم فاعبدون (فاتقون)

تواجدت المرأة في هذا المسلسل التنظيمي السياسي المحكم الذي مكن من إرساء قواعد المجتمع الإسلامي . فقد شهد بيعة العقبة الثانية ثلاث وسبعون رجلا وامرأتين* وبيعتها بيعة الحرب[3] . والبيعة أمر سياسي يبايع فيه المواطن والمواطنة من يتولى تدبير أمورهم . قبل ذلك كان لها حضور في الزحف السري السلمي الذي انتزع من قريش في صلح الحديبية أول اعتراف رسمي واقعي بحق المسلمين في الدخول إلى مكة، وبحريتهم في إقامة التحالف مع من يشاؤون من القبائل، من طرف الخصوم الرئيسيين المعاندين، ومفاوضات الحديبية من أعقد مفاوضات التاريخ صعوبة، إذ مكن التوقيع على بنودها العشر ـ رغم قساوتها ـ بعد صراع حاد ومعاناة شاقة من اثبات شخصية المسلمين السياسية المستقلة . فالإسلام ظهر كثورة حضارية شاملة قاعدتها الفقراء والمستضعفون والارقاء والموالي والمقهورون بسبب الثراء الاخطبوطي الفاحش المركز في أيدي الأقلية التي حازت عليه بممارستها التجارة الربوية (ربا الفضل وربا النسيئة) والرهون العقارية، وحيازة الأرض عبر بساتين الطائف، مما جعل التباين الاجتماعي يبرز في أبشع صوره، تحتل فيه قريش أعلى قمة الهرم، وساهم في التقدم البشري لأنه كان سلاحا إيديولوجيا ساعدهم على استعادة بعض من إنسانيتهم

2- سورة الأنبياء الآية 92

سورة المومنون الاية 52

* - نسيبة بنت بكر وأسماء بنت عمرو بن عدي

3 - ابن هشام السيرة النبوية ج 1 ص 427

المهدورة، والتخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم. نحن إذن أمام إيديولوجيا، والإيديولوجيا تنطوي على مصالح طبقية ومطامح سياسية، وأعلن القضاء على جميع أنماط العبودية والقهر والاستغلال وإحلال العدل في السلوك الاجتماعي، ولم تكن المرأة غائبة عن الصراع الدنيوي للدعوة الإسلامية الذي خاضه الملأ المكي لكون رسالة محمد تهدد كيانه السياسي والاجتماعي والاقتصادي. ومحاولة ترضيته بالمال والزعامة، مقابل تخلية عن الدعوة والحصار الاقتصادي (مقاطعة التعامل مع بني هاشم)، والتحالف مع الارستقراطية اليهوية في المدينة، وتهديد الرسول (ص) للطرق التجارية (غزوة بدر).

جل المرويات التي تحط من قيمة المرأة وجد أصحابها تفسيرا لها في معركة الجمل التي هزم فيها الجيش الذي كانت تقوده عائشة. فذات الجمل " الأحمر" الفقيهة الأولى في الإسلام تركت أكبر الآثار في الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين قال عنها هشام بن عروة عن أبيه :" **مارأيت أحدا أعلم بفقه ولابطب ولا بشعر من عائشة**[4] .

فقد عرفت بالقوة والشجاعة والجرأة نسبة إلى الحقبة الزمنية التي تواجدت فيها، وكانت تتابع بعمق التحولات التي طرأت على المجتمع الإسلامي في مسيرته التاريخية . أفزعتها الطريقة التي قتل بها الخليفة عثمان بن عفان، والتي تمس كرامة الدولة في شخصه، فقتله بتلك الطريقة الوحشية يعد بحق أبشع جريمة ارتكبت في تاريخ الإسلام. قبل ذلك كان لها موقف واضح جريئ من الأخطاء الجسيمة التي كان يرتكبها أقرباؤه من بني أمية الذين قبضوا على مقاليد السلطة وتوزعوها فيما بينهم، ولم يوفقوا في الارتفاع إلى مستوى مسؤولياتهم كحاشية مسؤولة للخليفة على مختلف الأمصار، واقبلوا على الدنيا يتهافتون لجمع الثروات، ويستأثرون

4- السمط الثمين ص 32 الاستيعاب ج 4 ص 885

بالفيئ و بعيش الترف والبذخ، وكان يؤلمها مثل مايؤلم عليا ويفزعها مثل مايفزعه ضعف الخليفة وتسامحه معهم وهو يعرف أنهم أصحاب مصالح ويشكلون قوة الضغط . وحين وقع الصراع بين الإثنين تحامل الجميع على أم المؤمنين وحملوها وحدها الخطأ، بل حكموا عليها بالكفر لولا ثوبتها حسب إقرارهم !!

بدأ الخلاف بين علي وعائشة بمقتل عثمان ومبايعة علي للخلافة من قبل الأنصار والمهاجرين، لينتهي بأحداث اليمة دامية سجلها التاريخ، وكانت موضوع تأويلات متعددة لاستجلاء الجوانب الغامضة.

قتل عثمان في موسم الحج .ومن أزواج النبي في مكة حفصة بنت عمر وأم سلمة وعائشة التي أخبرت وهي في الطريق إلى المدينةبالفاجعة فقالت : قتله ذنبه، وأقاده الله بعمله، وما الله بظلام للعبيد . **يامعشر قريش لايسو منكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه، إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الأصبع كما كانت تسميه**[5] .

يؤكد الكثير من المفسرين أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله (ص) ، فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين عليها : **هذا ثوب رسول الله لم يبل وعثمان قد أبلى سنته . وكانت أول من سماه نعثلا، ومن أقوالها : اقتلوا نعثلا، قتل الله نعثلا.**

قال أبو مخنف لوط بن يحي الأزدى : " لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة أقبلت مسرعة وهي تقول : ايه ذا الاصبع، لله أبوك، أما أنهم وجدوا طلحة كفئالها. فلما انتهت إلى شراف استقبلها عبد الله بن سلمة الليثي فقالت له : ماعندك ؟ قال : قتل عثمان. قالت : ثم ماذا ؟ قال : حارت بهم

5- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج 2 ص 77

الأمور إلى خير محار، بايعوا عليا . وهنا ثارت ثائرتها، وقررت شق عصا الطاعة على علي قائلة : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض ان تم هذا، ويحك انظر ماذا تقول. قال هو ماقلت لك يأم المؤمنين فولولت فقال لها : ما شأنك يأم المؤمنين، والله ما أعلم بين لابتيها أحدا أولى منه ولا أحق، ولا أرى له نظيرا في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته ؟" فماردت عليه جوابا.

يظهر أن ابتهاجها بولاية طلحة أول الأمر يفسره كونه تيميا مثلها، وأمرت برد ركابها إلى مكة، وعمدت إلى الحجر فاتخدت فيه سترا، وجعل الناس يجتمعون إليها فتحدثهم منكرة قتل عثمان، ومبررة معارضتها بحديث كان له تأثير عليهم لدرجة أنهم رفضوا تولية خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة الذي بعثه علي واليا على مكة، والقوا صحيفة علي التي وصلتهم في هذا الشأن إلى سقاية زمزم بعد أن اقتنعوا بحديثها، فما سرّ هذا الانقلاب، وقد كانت الحميراء على رأس الناقمين على عثمان والمحرضين عليه والمستنكرين لسياسته ؟

بعض المهتمين يفسر رد فعلها تجاه علي على أنه بلسم لجرحها الدفين منذ حادثة الأفك* ، حيث كان علي من المشيرين على الرسول (ص) بطلاقها تنزيها لعرضه عن أقوال المنافقين لما استشاره قائلا : أن هي الا شسع نعلك، سل الخادم وخوفها، وإن قامت على الجحود فاضربها" .

وبلغ عائشة ذلك ، وبلغتها شماتة فاطمة الزهراء، وذلك قبل تبرئتها قرآنيا. بعض كتب التفسير ناقشت ضمنيا كون امرأه نوح كافرة زانية كما هو حال مجتمعها الذي عاشت فيه، وأن ابنه سام ابن زنى، أو ولد على الفراش، لكن الخطاب الإسلامي اللاحق يستنكر بل ينفي أن تكون زوج

* الحادثة التي اتهمت فيها أم المومنين بالزنى مع الصحابي صفوان بن المعطل السلمي

النبي نوح خائنة وزانية إذ يحصر الخيانة بالكفر كما أكد ذلك الطبري في جامع البيان في تأيل أي القرآن، إذ يربط الخيانة بالشرك والكفر، كذلك القرطبي . ويشرح ابن كثير ذلك يقول : قال ابن عباس وغيره : مازنت امرأة نبي قط وإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب على الذين رموا عائشة بنت الصديق، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا أشاعوه. أما عن ابن نوح فيقول ابن كثير : إنه ليس ابنه وإنما كان ابن امرأته[6] . والآية 10 من سورة التحريم تربط بين خيانة امرأة نوح وخيانة امرأة لوط يفسرها الطبري كما يلي : كانت خيانتها أنهما كانتا مشركتين[7] .

وترى طائفة أخرى أن عليا امتنع عن مبايعة أبي بكر الصديق الذي اعتبر امتناعه بمثابة شن حرب عليه، وأنه اقتحم بيته بالقوة. يؤكد ذلك ماقاله أبو بكر وهو على فراش الموت أنه ندم على ثلاثة أشياء فعلها وعلى ثلاثة أخرى تركها « فليتني تركت بيت علي وإن كان قد أعلن علي الحرب[8]» وفي رواية أخرى « وددت أني لم أكشف بيت فاطمة من شيء وإن كانوا قد غلقوه على الحرب[9]» معنى أن أبا كرا اقتحم بيت علي وفاطمة بالقوة بعد ما امتنع عن مبايعته.

ويرى البعض الآخر أن السبب هو زواج علي من أسماء الخثعمية أم محمد بن أبي بكر الذي تربى في حجره بعد وفاة أبي بكر الصديق، بينما يذهب الفريق الثالث إلى أنها كانت تضيق به لكونه زوج فاطمة بنت خديجة، الودود الولود التي تعلق بها قلب الحبيب في حياتها وبعد موتها، وعائشة لم تتمكن من الإنجاب، والإنجاب عند العرب لايكون إلا بالذكور،

6- تفسر القرآن ج 2 ص 444

7- ابن جرير الطبري : جامع البيان في تأويل أي القرآن ج 28 ص 170 - 171

8- ابن قتيبة الأمامة والسياسة ج 1 ص 18

9- ابن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك ج 2 ص 353

فكيف بها وهي لم تنجب ذكورا ولا إناثا، ولم تكن من " منجبات العرب" . وعلي هو أبو الذرية الباقية من محمد (ص) أضف إلى ذلك أنه كان يميل إلى مارية القبطية ويقوم بأمورها عند النبي، وفرح هو وفاطمة لما ولدت ابراهيم، وبرّأها من حادثة شبيهة بالحادثة التي وقعت لعائشة أو برأها الله منها على يده .

روى محمد بن الحنفية عن أبيه أمير المومنين قال : كان قد كثر على مارية القبطية أم ابراهيم في ابن عم لها قبطي كان يزورها ويختلف إليها فقال لي النبي : خذ هذا السيف وانطلق، فإن وجدته عندها فاقتله، قلت يارسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة، أمضي لما أمرتني به، أم الشاهد يرى مالايرى الغائب. فاقبلت متوشحا بالسيف، فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما أقبلت نحوه، عرف أني أريده فأتى نخله فرقي إليها، ثم رمى بنفسه على قفاه، وشغر برجليه، فإذا به أجبّ امسح، ماله مما للرجال قليل ولاكثير، قال فغمدت السيف ورجعت إلى النبي فقال : الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت.

ونسب إليها أنها أمرت بلالا أن يأمرأباها بالصلاة، فجعل يوم صلاته بهم حجة صرف الأمر إليه. " أيكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمها رسول الله في الصلاة"، فبويع على النكثة كما كان يردد ذلك علي لأصحابه : ألم يقل (ص)" أنكن لصويحبات "يوسف إلا انكارا لهذه الحال، وغضبا منها لأنها هي وحفصة تبادرتا لتعيين أبويهما، وأنه (ص) استدركهما بخروجه وصرفه عن المحراب، وسد الرسول (ص)، باب أبيها إلى المسجد وفتح باب صهره علي، ثم أن عائشة لما تولى أبوها الخلافة استطالت واستظهرت على علي وفاطمة. وما كان من أمر فدك الذي طلبته على سبيل الإرث أو النحلة واحتجت بالطلب والحث وتظلمت فلم يمكنها منه أبو بكر معللا ذلك بقوله أنه سمع رسول الله يقول : **نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه، فهو صدقة**" وماكان من امتناع علي من

مبايعة أبي بكر، ولم يفعل ذلك إلا بعد موت فاطمة أي بعد ستة أشهر من خلافته... مبررات قد نجد لها عذرا عند عامة النساء لما قد تتركه الغيرة أو الحرمان من الذرية (العقم) من رواسب في النفس، لكنها مستبعدة بل مردودة في حق " ذات الجمل الأحمر" لأسباب كثيرة : فمن كان بمثل علمها وأخلاقها وقوة شخصيتها وجرأتها وذكائها ووعيها ووزنها الاجتماعي، وعند زوجها لايمكن أن يتغلب عليه الإحساس بالألم من أمور خارجة عن إرادته . فقد أنزلت ابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير منزلة الابن وكانت تكنى به، وضمت القاسم بن أخيها عبد الرحمان وأخته بعد موته. يقول عنها القاسم " فمارأيت والدة قط أبرّ منها" أو ينال منه الحقد والغيرة وشهوة الانتقام والثأر، خصوصا وأنها تعرف قيمة علي ومكانته في الإسلام، وعند زوجها، فهو ابن عمه، وتلميذه الذي تربى في حجره، وأفسحت له سيدة نساء زمانها من قلبها مكانا كبيرا، ورعته بعين الحب والرحمة. وجعلت زوجها قرير العين بما قدمه لعمه أبي طالب الكثير العيال والقليل المال، وتعلم أنه هو وزيد بن حارثة أهم الأركان المساندة له، من إعداد وتهييئ أحب الناس إليه الغنية الثرية العاقلة المتزنة خديجة، الواعية بأهمية التجارة ومنافعها ، والملمة بادارة شؤونها وقواعدها بين رجالات قريش، والمتواجدة إلى جانبه في أوقات الشدة والمحنة والحصار. وتعلم علم اليقين أنها عاشت معه الفترات العصيبة التي عانى منها المسلمون في صدر الإسلام وهم يتعرضون للبلاء بصبر.. ويزداد الإغراء فيزداد الرفض والإمساك « والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ماتركته» فترات كانت إلى جانبه زوجة مطمئنة صابرة محتسبة مساندة ماديا ومعنويا. وهل يخفى على عائشة أن زواجها لم يكن إلا بعد التحاق الصدر الحنون والقلب الرؤوف، المخفف للهموم والمتاعب وعنت المشركين وجحودهم إلى الرفيق الأعلى، وماكانت تتمتع به المجاهدة الأولى من مركز اجتماعي وكفاءة وشرف وأرومة وأشياء أخرى ..؟ جعلتها تقبل اليتيم الفقير الشاب زوجا لها، وجعله هو يتقبل سيدة أسن منه بكثير، متزوجة مرتين ولها أطفال !!! ويبقى وفيا لحبها، إذ لم تشاركها فيه غيرها حتى ماتت. قالت عنها إقرار لحفظ رسول الله عهدها بعد مرتها " ماغرت

على أحد من نساء النبي ماغرت على خديجة قط، ومارأيتها قط ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة وربما قلت له : كان لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول : أنها كانت وكان لي منها ولد[10].

وقال جميع بن عمر التيمي : دخلت مع عمتي على عائشة فسئلت أي الناس كان أحب إلى رسول الله ؟ قالت فاطمة قيل ومن الرجال ؟ قالت : زوجها إذ كان كما علمت صواما قواما ". أيضا لم تكن تجهل منزلة علي عند الرسول، فهو صاحب لوائه في مشاهده كلها، أخوه في الهجرة، أب حفيديه، وتقدر علمه وشجاعته وفقهه وفصاحة لسانه، وشدته في الحق وإذعانه له، وغلظته على منكريه"، إن عليا أقضانا" شهادة من الفاروق في حقه " لو ولوها الاجلح لحملهم على الجادة"[11].

حقائق ومميزات ثابتة ماكان لعائشة أن تجهلها أو تتجاهلها أو أن تؤثر في نفسها لدرجة الانتقام والاخلال بالأمن العام للأمة، إضافة إلى مكانتها العلمية والفقهية وحنكتها في التصرف.

جاء في الموطإ إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : " ان انظر ماكان من حديث رسول الله أو سننه فاكتبه فإني خفت دوس العلم وذهاب العلماء وأوصاه أن يكتب ما عند عمرة* بنت عبد الرحمان الأنصاري وماعند القاسم بن محمد بن أبي بكر وهو ابن أخ عائشة.

ولا شك أن الفقيهة كانت تعي أن زواجها من الرسول كان تكتيكا

---

10 - رواه الشيخان والترمذي

11 - أخرجه الترمذي والحاكم وصححه.

* - عمرة خالة عمر بن عبد العزيز وكانت تروي أحاديث سيدتها عائشة

لتحقيق استيراتيجية رسمها (ص) بعد موت العم والزوجة خصوصا وأنها كانت قبله مخطوبة لابن جبير بن مطعم بن عدي صديق عزيز لأبي بكر. وكان أعلم قريش بالعرب بعده لأنه المتولي لتأديبه وتثقيفه. وكان أبو بكر قد سمى عائشة للذي رأى من حسن أثره عليه . وألغى خطوبتها منه ليزوجها للرسول وهي بنت ست سنوات، ولم يدخل بها إلا حينما بلغت التسع.

هذه الزيجة وثقت أواصر المحبة والصداقة بينه وبين حامل الديات[12] للكفاح والجهاد الحافل بالبطولات ضد مشركي مكة فأبو بكر كان ضمن المجموعة المتميزة التي تمثل السلطة العليا في النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام في مكة والتي تتكون منها قبيلة قريش*.

فعبد الكعبة أو عبد الله بن عثمان الذي اشتهر باسم أبي بكر الصديق في الإسلام كان يتولى منصب "الاشناق" وهي مسؤولية كبرى ذات أهمية

12- السلطة العليا التي كانت على قمة النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام والتي اعترف العرب بسيادتها عشر بطون هي :

هاشم : يمثله العباس بن عب المطلب الذي يتولى توفير الماء اللازم للحجيج وتوزيعه عليهم (السقاية)

أمية : يمثله أبو سفيان بن حرب يتولى مسؤولية القيادة الحربية: حامل العقاب أي راية قريش في القتال

نوفل : يمثله الحارث بن عامر ، يشرف على الرفادة أي الأموال التي تنفقها قريش في الحج

عبد الدار : يمثله عثمان بن طلحة يقوم على سدانة الكعبة ودار الندوة

أسد : يمثله يزيد بن زمعة بن الأسود يمثل المشورة

تيم : يمثله عبد الكعبة أو عبد الله بن عثمان وهو أبو بكر الصديق كان يقوم بتقدير الديات والمغارم التي تتعهد قريش بأدائها .

مخزوم : يمثله خالد بن الوليد : كان يقوم على الأموال الخاصة بالحروب وقيادة الخيل والفرسان (القبة والاعنة)

عدي : يمثله عمر بن الخطاب يتولى مسؤولية السفارة

جمح : يمثله (صفوان بن أمية) يشرف على الأيسار والأزلام ويستشيرها قبل الإقدام على أهم الأمور.

سهم : يمثله (الحارث بن قيس) يقوم على الأموال الموقوفة على الألهة المعبودة.

في المجتمع ، فهو الذي يقوم بتقدير الديات والمغارم أي بمثابة وزير المالية في عصرنا الحالي. واختصاص كل بطن من البطون العشرة المكونة لقبيلة قريش مرتبط بوزنها الاجتماعي. وسخر أبو بكر ماله وجاهه ينفق منهما بغير حساب، يؤهله ماضيه ووضعه الاجتماعي، قالت عنه أم سلمة : " كان خدنا لمحمد وصفيا له " وقال عنه (ص) مانفعني مال أحد قط مثل مانفعني مال أبي بكر"

فهل زعزة الاستقرار السياسي فعلا هو الذي جعل عائشة تتخذ موقفها الصارم من علي بن أبي طالب، وتشق عليه عصا الطاعة مطالبة بالكشف عن الحركة المسلحة التي أودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان ؟ متهمة إياه بالتقصير في معاقبة الثائرين على الخليفة المقتول والقصاص منهم، ثم جعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم من يريدون ؟ وما سرّ تكتلها مع طلحة والزبير الذين بايعا عليا ثم نكثا فيها بعد ؟ وهل كان للثلاثي نفس الأهداف ؟

كل هذا أصبح جزءاً من التاريخ لأنه أصبح في عداد الماضي، لكن مسأءلة الماضي بعقلية الحاضر لاستجلاء الحقيقة أمر لابد منه إن لم يكن مسؤولية المثقفين والمهتمين !

صراع المصالح والتهافت على السلطة

شهد نظام الحياة الإسلامية في عهد خلافة عثمان بن عفان تحولات اجتماعية كانت بداية لإحداث وتطورات انتهت "بالفتنة." فقد انتشر الكثير من الصحابة الذين كان عمر يحبسهم في المدينة خوفا عليهم من التهافت على جمع الأموال من مختلف الأمصار بحثا عن مواقع تسهم في إنماء مصالحهم الاقتصادية، وتكرس نفوذهم الاجتماعي في أطراف الامبراطورية، واستأثروا بعوائد الفتح. واتخذ عثمان نهج اقتطاع الأراضي التي كانت في ملك عامة المسلمين، والمساحات المصادرة لحساب بيت المال التي كانت في ملك كسرى وقيصر، والقواد والأمراء الذين حاربوا ضد الفتح " أرض الصوافي" وكان عثمان أول من اقتطع أرض العراق[13] اقطاعات اجارة لتتحول إلى ملكية فردية خاصة فيما بعد. وقد بلغت نحلة هذه الأملاك العامة في عهد عمر بن الخطاب تسعة ملايين درهم، لتتحول في عهده إلى خمسين مليونا، أي نحو ربع الدخل للدولة في ذلك الحين.[14] وبسط الخليفة يده في منح الاقطاعات للولاة والقادة والعمال والأقارب الذين استبدوا بالأمر دونه، وأقبلوا على الدنيا يستكثرون منها ويستبيحون لأنفسهم تكديس الثروات جريا وراء سلطة المال وبريق التفوذ. وأصبح البيت السفياني نواة للأرستقراطية القديمة التي ستلعب دورا بارزا على مسرح الأحداث.

. فوالي الكوفة سعيد بن العاص يقول عن أرض العراق أنها بستان قريش، فيرد عليه الاشتر مالك بن الحارث النخعي" أتجعل ماأفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك [15]

---

13 ـ القاضي أبو يوسف : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص 140 .

14 ـ الماوردي الأحكام السلطانية ص 183 طبعة القاهرة 1298 هـ

15 ـ المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 346

وكان عمر بن الخطاب قد جعل هذا السواد ملكا وبستانا لعامة المسلمين.

والزبير بن العوام قدرت تركته بعد موته ب 59 مليونا و 800 ألف درهم، وكان له ألف مملوك يؤدون له الخراج[16]. وله بالمدينة أحد عشر دارا، ودور وجنان في البصرة والكوفة والفسطاط والاسكندرية[17] وترك ألف فرس [18] وكان يتاجر ويأخذ عطاءه[19] .

وطلحة بن عبيد الله كان له عند خازنه يوم موته مبلغ مليونين ومائتي ألف ـ وكانت له دار مشهورة بالكوفة وغلته من العراق ألف دينار كل يوم، بناحية الشراة أكثر. وشيد داره بالمدينة بالأجور والجص والساج[20] . وفي رواية أخرى قدرت ثروته بمائة كيس من الجلد يشتمل كل كيس منها على ثلاثة قناطير من الذهب [21] ، وكان سخيا يكفي ضعفاء قبيلة بني تيم ويقضي ديونهم ويرسل إلى عائشة زوج النبي عشرة آلاف وترك من العين مليونا وعشرين ألف درهم ومائتي ألف دينار.

وسعد بن أبي وقاص كان ميراثه 250 ألف دينار[22] ، بنى دار العقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات[23] .

---

16 ـ أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية ج 7 ص 261 بيروت دار الكتب العلمية

17 -محمد بن سعد الطبقات الكبرى ج،3 ق 1 ص 261 دار بيروت 1960

18 ـ أبو الحسين علي الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط 4 ج 3 ص 242 المكتبة التجارية الكبرى القاهرة 1964

19 ـ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام ص .498

20 ـ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2 ص 243

21 ـ ابن سعد، الطبقات الكبرى ج 3 ص 158

22 ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج 8 ص 81

23 ـ المسعودي نفس المرجع ج 2 ص 342

وعبد الرحمان بن عوف كان لايمكلك شيئا عندما هاجر إلى المدينة مثله مثل بقية المهاجرين، ولم يمر عليه وقت طويل وهو يمارس التجارة حتى أصبح من الأغنياء، وكثر ماله حتى قدمت له سبع مائة راحلة من الشام تحمل السلع فارتجت المدينة من صوت بعيره [24] ترك ألفي بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع وكان له من الذهب مامحلت أيدي الرجال حين قطعوه بالفؤوس. وصولحت إحدى نسائه الأربعة بثمانين ألف من ربع الثمن[25] .

وزيد بن ثابت خلف حين مات من الذهب والفضة مايكسر بالفؤوس ، غير الضياع المقدرة بقيمة مائة ألف دينار[26] .

ويعلى بن منية خلف 1500 دينار وعقارات قيمتها ثلاثمائة ألف دينار ، وقدم إلى المدينة في اليمن في أربعة مائة بعير محملة بالسلع. ومن الذين مولوا حرب طلحة والزبير ضد علي[27] .

أما عثمان بن عفان فقد وجدوا له يوم قتل عند خازنه 30 مليونا و 500 ألف درهم و 150 ألف دينار وألف بعير بالربدة، وصدقات بقيمة مائة ألف دينار، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين 100 ألف دينار، وخلف خيلا كثيرا وإبلا[28] وبنى سبع دور بالمدينة [29] .

24- ابن كثير البداية والنهاية ج 8 ص 171

25- ابن كثير البداية والنهاية ج 7 ص 171

26- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 342

27- ابن قتيبة الأمامة والسياسة ج1 ص 60

28- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 342

29- ابن قتيبة، الأمامة والسياسة ج1 ص 32

وظهر الصراع حول كيفية توزيع الأراضي المفتوحة، وتحامل الناس على الخليفة الذي حمى الحمى على المسلمين مع أن الرسول (ص) جعلهم شركاء في ثلاثة :

" **الماء والكلا والنار**" وكان ص يقول : " **من كانت له أرض فليزرعها بنفسه أو يمنحها أخاه ولايؤاجره إياها ولايكريها**" . وعلق أبو سعيد الخدري على حديث الرسول قائلا : ذكر من أصناف المال ماذكر حتى رأينا لاحق لأحد منا [30] في فضل .

يقدم جمال الدين الأفغاني وصفا دقيقا لهذه التحولات الاجتماعية : «في زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحياة الروحية في الأمة تغيرا محسوسا. وأشد ماكان منها ظهورا في سيرة العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة وأرباب الثروة بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى " أمراء" وطبقة تدعى " أشراف" وأخرى أهل "ثروة وثراء وبذخ" وانفصل عن تلك الطبقات طبقة العمال وأبناء المجاهدين ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس الحكم الإسلامي وفتوحاته ونشر الدعوة، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طراز الحياة والذي أحدثته الحضارة الإسلامية، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لايستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمال ورجال الدولة، وقد فشت العزة والاثرة والاستطالة، وتوفرت هيآت الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم، وفي العمال، وبمن استعملوه وولوه من الأعمال، فنتج عن مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين، تكون طبقة أخذت تحس بشيء من الظلم

---

30 - المغنى في أبواب التوحيد والعدل ج 20 ص 39 القسم 2

وتتحفز للمطالبة بحقها المكتسب من مورد النص، ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني أبو بكر وعمر [31].

هذا في الوقت الذي كان فيه أبو بكر وهو في أوج ثرائه يعيش في مستوى المواطن العادي من الراتب الذي خصص له بعد توليه الخلافة منصرفا لخدمة شؤون المسلمين، ولايخلف بعد موته شيئا يورث، وكان قبل يشتغل بالتجارة. وعمر بن الخطاب يموت ويترك ديونا سيؤديها عنه ابنه، وعاش في مستوى المواطن الكادح الملتزم بأسلوب العيش اليومي البسيط وكان يردد " والله لايحل لعمر من مال المسلمين الأحلتان حلة للصيف وحلة للشتاء، وقوتي وقوت عيالي كرجل من قريش ليس بإغناهم ولا بأفقرهم[32] . وعلي بن زبي طالب يترك وراءه ثلاث مائة درهم. وكان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة ألف دينار، ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار[33] .

يصل إلى المدينة يوما بعض أموال الأقاليم فتذهب إلى عمر رضي الله عنه ابنته حفصة لتأخذ نصيبها وتقول له : **ياأمير المومنين، حق أقاربك في هذا المال، فقد أوصى الله بالأقربين فيجيبها : يابنية حق أقربائي في مالي أما هذا فمال المسلمين قومي إلى بيتك "**

صحيح أن عمر من خلال سياسته في العطاء المبنية على التفضيل" لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه" قد ساهم في نمو الأرستقراطية القرشية لكنه كان يمنع أصحابها من الانتشار في أرجاء الامبراطورية وعيا منه بميل النفس البشرية إلى التهافت على حطام الدنيا في غياب الوازع الديني والقانون الذي يضبطه .

---

31 ـ جمال الدين الأفغاني : الأعمال الكاملة دراسة وتحقيق محمد عمارة القاهرة 1967 .

32 ـ الطبري : سيرة عمر

33 ـ المسعودي : مروج الذهب ص 175 ـ 177

أمام هذه التناقضات التي عرفها عصرا عثمان، وهذا الانحراف في التصرف في مال المسلمين أثارت المظالم الاجتماعية نفوس الناس، وهم يشاهدون السلطة الحاكمة التي من المفروض أن تسير في الناس سيرة المسؤول، تتصرف في أموال الدولة ـ التي هي حق لجميع الناس على السواء بحرية مطلقة عن طريق الحيازة والامتلاك . وتبلورت حركة جماهيرية قاعدتها الفقراء والاراذل يتزعمها المسلم الثائر أبو ذر العفاري المناهض لسيادة الاستغلال الاقتصادي، كردة اقطاعية عن تعاليم الإسلام الماهضة لهذا الواقع،وتندد بهذه التحولات الناتجة عن انحراف عثمان في السنوات الست الأخيرة، وولاة "الأقاليم الذين لايتصرفون كمن وكلت إليهم رعاية أموال المسلمين لصالح كافتهم»

يصور ذلك الوضع جواب عمر بن عبد العزيز لعتمه فاطمة بنت مروان مبعوثة الأسرة الأموية الحاكمة المطالبة بالعدول عن مصادرة ممتلكاتهم وردها إلى ملكية الأمة.

" إن الله تعالى بعث محمدا رحمة ـ لم يعثه عذابا ـ إلى الناس كافة . ثم اختار له ماعنده، فترك لهم نهرا شربهم فيه سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عمل صاحبه، فلما ولي عثمان اشتق من ذلك النهر نهرا، ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار، ثم لم يزل ذلك النهر يشتق منه يزيد ومروان وعبد الملك وسليمان، حتى أفض الأمر لي وقد يبس النهر الأعظم ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ماكان عليه [34]"

روى الواقدي بإسناده عن المسور بن عتبة قال : سمعت عثمان يقول : إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال طلاق أنفسها وذوي

34- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص 132

أرحامهما، وأني تأولت فيه صلة رحمي . وكان بحضرته زياد بن عبيد مولى الحرث بن كلدة الثقفي، وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البصرة فجعل يقسمه بين أهله وولده بالصحاف، فبكى زياد، فقال لاتبك فإن عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي أهلي وولدي وقرابتي ابتغاء وجه الله .

وكان يعتبر خزان بيت المال خزانا له ويتصرف على هذا الأساس. روي أن الوليد بن عتبة والي الكوفة أخا عثمان لأمه اقترض من بيت المال مبلغا ولم يسدده، فتقدم إليه عبد الله بن مسعود عامل بيت المال يطلب منه سداده فماطل، فاشتكاه إلى عثمان فأجابه قائلا : إنما أنت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما أخذ من مال فاستقال ابن مسعود وقال : كنت أظن أني خازن المسلمين فأما إذا كنت خازنا لكم فلا حاجة لي في ذلك [35] . وكان يقول موضحا تصرفاته " **مالي لاأفعل في الفضل ماأريد فلم كنت إماما إذن** [36] .

ووضع يزيد بن الأرقم صاحب بيت المال المفاتيح بين يديه وبكى . فقال له عثمان : "أتبكي أن وصلت رحمي قال : لا، ولكني أبكي لأني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضا عما كنت أنفقته في سبيل الله أيام رسول الله [37].

مصالح الأمة من المفروض أن تعني مصالح الأغلبية لا مصالح الأقلية. وموقف عثمان في تأويله موقف مرفوض أساسا لأنه يرعى مصالح الأقلية، وتأويله يتعارض مع الوحي وأهداف الشريعة الإسلامية التي هي في حقيقة أمرها وضعية مادامت قائمة على الفهم البشري (الفقهاء) لمصادر الإسلام (القرآن والسنة)

35- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي ص 183

36- ابن قتيبة الامامة والسياسة ج 1 ص 28 .

37- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج1 ص 67

ثارت عائشة مثلما ثار علي على هذه الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية التي ولدتها التطورات السياسية والإدارية. وكانت ترى بأنه قد أحدث وبإحداثه يستحق الخلع ، لكن عثمان ظل متمسكا بالقميص الذي ألبسه الله إياه على حد تعبيره.

ولم تتحرج عائشة منذ توليه الخلافة من التعرض لسياسته بالنقد والاعتراض على الكثير من أعماله، خصوصا وصله رهط بني أمية. كما أنكرت عليه وهو على المنبر وعلى مسمع الجميع موقفه من عبد الله بن مسعود، وانتقدت سيرة عماله في الناس حتى تراءى للكثير أنها من المحرضين عليه . وأقوالها فيه وفي كل من يزيغ عن الجادة معروفة .

روى الواقدي في كتاب الدار : " أن مروان بن الحكم لما حضر عثمان الحصر الأخير أتى زيد بن ثابت فاستصحبه إلى عائشة ليكلمها في هذا الأمر. فمضيا إليها وهي عازمة على الحج فكلماها في أن تقيم وتدب عنه فأقبلت على زيد وقالت : ومامنعك يابن ثابت ولك الأساريف قد أقطعكها عثمان، ولك كذا وكذا، وأعطاك من بيت المال عشرة آلاف دينار. فقال زيد : فلم أرجع عليها حرفا واحدا ،وأشارت إلى مروان بالقيام، فقام مروان وهو يقول : حرب تبس على البلاد، حتى إذا اضطربت قدماه، نادته عائشة وقد خرج من العتبة : يابن الحكم أعلي تمثل الأشعار ! قد والله سمعت ماقلت : اتراني في شك من صاحبك ! والذي نفسي بيده أنه الآن في غرارة في غرائري مخيصا عليه فالقية في البحر الأخضر، قال زيد، فخرجنا من عندها على اليأس منها، وكان عثمان قد أقطع مروان بن الحكم فدك، وسبق أن طلبته فاطمة الزهراء فصرفت عنه في خلافة أبي بكر الصديق !!! .

الناكثان بين الغنائم والأموال والحكم

كان للغنائم والأموال دور كبير في تحريك طلحة والزبير ضد علي الذي لم يكن أشد على عثمان منهما . وما المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان سوى ستارا أخفيا وراءه رغبتها الأكيدة في الحكم، وبالأخص بعد أن عين الولاة ولم يمكنها من ولاية أي مصر . وقد كانا من ذوي البلاء والسابقة في الإسلام، قدما له أعمالا خالدة طيلة ثلاثة عقود . كان طلحة يطمع في ولاية اليمن، والزبير في ولاية العراق(...) **أيضا خوفهما من العودة إلى دستورية الحكم لمعرفتها لفكر علي الثوري ضد التمايز الطبقي** الذي استشرى في عهد الخليفة المقتول . وقد صرح بذلك في الخطبة التي ألقاها بعد البيعة مباشرة : " **فأنتم عباد الله، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية، لافضل فيه لأحد على أحد وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب. ولم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرا ولاثوابا، وما عند الله خير للإبرار. وإذا كان غدا إن شاء الله ـ فاغدوا علينا فإن عندنا مالا نقسمه فيكم، ولايتخلفن أحد منكم عربي ولاعجمي كان في أهل العطاء أو لم يكن إلاّ حضر** »، هذا القرار الخطير الناتج عن موقف فكري يلغي اتخاذ السبق إلى الإسلام والفضل في الدين ستارا وسبيلا لجمع الثروات والأموال شكل معارضة كبيرة لعلي :

* انشقاق طلحة والزبير ونكثها للبيعة وهما نواة أرستقراطية ثيوقراطية تولت الصدارة بعد وفاة الرسول (ص)

* إعلان الحلف الأموي الأرستقراطية القديمة برئاسة معاوية الحرب ضد سياسة علي الاجتماعية بعد أن قفز على مسرح الحياة منذ خلافة عثمان.

38- نهج البلاغة ص 336

* إقبال الأشراف والأغنياء من الذين بايعوا في المدينة والأقاليم على التسلل إلى الشام والانضمام لجيش معاوية، وسيظل علي متمسكا بموقفه رغم إدراكه للمخاطر التي تهدد سلطته وكيانه، بالمضمون الاجتماعي الاقتصادي للمواطنة : فالعلاقة بين حب الإنسان لوطنه مبنية أساسا على مايقدمه له هذا الوطن من وسائل مادية ومعنوية تمكنه من العيش الكريم . وهو ماعبر عنه علي بقوله :

الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة والمقل غريب في بلدته .38

الأسباب الحقيقية للثورة ضد علي لم تكن تعبر عنها الشعارات المرفوعة **بل كانت الثورة ضد فكره التقدمي الذي يسعى إلى الانقلاب الاجتماعي بإلغاء التمييز بين الناس في العطاء وإقرار مبدإ المساواة ومجتمع الأخوة.** . ." ألا لايقولن رجالا منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عارا وشناراً، إذا مامنعتهم مايخوضون فيه،وقيدتهم إلى حقوقهم التي يعلمون فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا، موقف استنكره الأغنياء والإشراف، أن يتساووا بمن كانوا موالي وارقاء عندهم بالأمس القريب".

قال سهل بن حنيف يأمير المومنين هذا غلامي بالأمس، وقد اعتقته اليوم ؟ فقال علي : نعطيه كما نعطيك، فاعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضل أحداً على الآخر [39].

يؤكد ماذهب إليه الحوار الذي دار بينه وبين المعارضين الكبيرين طلحة والزبير قال علي :

---

[39]- نهج البلاغة ج 7 ص 38.

ما الذي كرهتها من أمري حتى رأيتما خلافي. أجابا خلافك عمر بن الخطاب في القسم. أنك جعلت حقنا كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لايماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا، وأوجفنا عليه بخيلنا ورحلنا، وظهرت عليه دعوتنا وأخذناه قسرا قهرا مِنْ مَنْ لايرى الإسلام إلا كرها.

قال علي : أما القسم والاسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء، فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من لدن حكيم حميد، وأما قولكم جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقد سبق إلى الإسلام قوم نصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضلهم رسول الله في القسم ولا آثرهم بالسيف. والله موف السابقين والمجاهدين يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا.

قال الزبير في ملإ من الناس : هذا جزاؤنا من علي، أقمنا له في أمر عثمان حتى قتل، فلما بلغ ما أراد جعل فوقنا من كنا فوقه. وقد تحدث علي في ذلك فقال : لو أمرت به لكنت قاتلا، أو نهيت عنه لكنت ناصرا" .

وتجمع المصادر أن طلحة والزبير كانا المحركين المباشرين للثورة على عثمان. وأنهما كانا وراء الرسالة التي أرسلت باسم الصحابة إلى الأمصار تدعو المجاهدين إلى القدوم إلى المدينة .

« من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين وبعد :

فإن كتاب الله قد بدل، وسنة رسول الله قد غيرت، وأحكام الخليفة قد بدلت فننشد الله من قرأ كتابنا من أصحاب رسول الله، والتابعين بإحسان إلا أقبل علينا وأخذ الحق لنا وأعطيناه، فأقبلوا إلينا (...) على حقنا،

واستولى على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا. وكان طلحة يحرض أهل الكوفة وأهل البصرة على عثمان وعندما ناداه عثمان وهو يشكو من الحصار رد عليه « لأنك بدلت وغيرت»[40]

أما علي بن أبي طالب فإن المصادر السنية والشيعية (ماعدا الخوارج) تتجنب اتهامه وتبرز عمله كوسيط بينه وبين الثوار، بل كان عثمان يرجع إليه كلما اشتد عليه الأمر»

ورد على الذين عاتبوه في هذا الشأن : أتأمرني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله لا أطور به[41].

فعلي يمثل الاتجاه الإسلامي الخالص الذي طبقه أبو بكر، وأرسى قواعده عمر بشدته وصرامته . وطبيعة التركيبة الاجتماعية الجديدة للدولة لم تعد في صالحه، فالاتجاه الجديد الذي بدأ يثبت قواعده من الناحية الواقعية في الست سنوات الأخيرة من خلافة عثمان يؤكد تواجد أنوية لتيارات مختلفة تفجر كيان المجتمع الإسلامي منذ وقت مبكر ليتجلى بوضوح في أحداث الفتنة ونتائجها على خلافة علي الذي عاش أكبر انشطار سياسي عرفته الرسالة .

* خذلان أهل الكوفة له حتى تضجر منهم : " إن لم يكن في الدين ملك إلا ملك الكوفة ذات الفتن أبعدها الله!

* عصيان أهل العراق " اللهم أني مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني فابدلني خيرا منهم وأبدلهم شرا مني"

40- ابن قتيبة الأمامة والسياسة ج1 ص 35

41- نهج البلاغة ص 151

* استئثار معاوية دون غيره ، يا يعاز من عثمان الذي ضم إليه ولاية حمص وفلسطين بخير ما في الدولة من الأمصار والأقاليم، وميل أهل الشام إليه : " ليس من شك في أن عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما أتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان وتثبيتها في بني أمية. فعثمان هو الذي وسع على معاوية في الولاية فضم إليه فلسطين وحمص وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الإرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مد له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر، فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهدا، وأقواهم جندا وأملكهم لقلب رعيته[42] وكان وحده يدير الصراع القائم بين الخلافة ونظام الملك ويوجهه بشطارته ومكره.

* الذين خرجوا عنه لقبوله التحكيم وهم خيرة رجاله واخلص جنده في معركة الجمل وأكثرهم حماسا لقتال خصمه معاوية وهم الذين ثاروا عليه (الخوارج) .

- ابعاد عاملين أساسيين عن الحياة السياسية الفعلية للدولة الإسلامية، الشباب والنساء . فالشباب كان معظمهم في طور الطفولة مع بداية الرسالة، لكنهم حينما أصبحوا مهيئين كغيرهم للمشاكة في الحكم والولاية وجدوها حكرا على الشيوخ والصحابة أو من آثرهم عثمان وخصهم بالمناصب والأعمال، وهم لايمتازون عن غيرهم. كتب الاشتر إلى عثمان يقول :

من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنه نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره، أما بعد :

42- طه حسين الأعمال الكاملة لخلفاء الراشدون ج 4 ص 315

فقد قرأنا كتابك، فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمع لك بطاعتنا ، وزعمت قد ظلمنا أنفسنا، وذلك ظنك الذي أرداك فاراك الجور عدلا والباطل حقا، وأما محبتنا فإن تنزغ وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا، وتسييرك صلحائنا وإخراجك إيانا عن ديارنا، وتوليتك الإحداث علينا وأن تولي مصرنا عبد الله بن قيس وأبا موسى الأشعري وحذيفة فقد رضينا حلما، واحبس وليدك وسعيدك ومن يدعوك إلى الهوى من أهل بيتك إنشاء الله والسلام [43]

* طغيان سلطان المال على النفوس وضعف الوازع الديني وظهور الملكية العقارية الضخمة التي صنفت الأفراد الذين عاشوا في إطار العدالة الاجتماعية إلى طبقات .

ـ طبقة أرستقراطية المولد والثراء والسلطان لاتجد ماتشغل به نفسها غير الشعر والغناء والرقص.

ـ طبقة الرقيق والبؤساء التي تعمل في الضياع المترامية الأطراف التي تملكها الطبقة الأولى.

ـ الطبقة المتوسطة التي تنازعها الأغنياء وفرقوها إلى أحزاب وشيع .

أما عائشة فلم تكن من الأرستقراطية القريشية " الحديثة ولا استهوتها الأطماع فكدست الأموال، واقتنت الضياع ولا انساقت وراء العصبية القبلية، بل عارضت لأجل المبدإ ولخبرتها الدقيقة ببواطن الأمور، لا لأنها كانت ضعيفة مطاعة، قليلة الخبرة بالجماهير الحاشدة وتفاعلاتها فأساءت التقدير [44] فهي لم تكن مصدر الفتنة كما يقال وسبقت الإشارة

43- طه حسين : الأعمال الكاملة الخلفاء الراشدون ج 4 ص 324 325

44 ـ عبد السلام ياسين تنوير المومنات ج 2 ص 316

إلى مصادرها الرئسية، بل كانت ترى أن البحث عن قتله الخليفة أمر ضروري وعبرت عن موقفها بصراحة " **أن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه والبدو والأعراب، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام** "

وإذا كانت الفقيهة مقصد الصحابة والصحابيات بعد وفاة الرسول (ص) يستفتونها في العلم فتفتهم منه ، وإذا كانت قد روت أكثر من ألفي حديث، وصححت لمجموعة من الصحابة على رأسهم أبو هريرة ، ألم يكن من واجبها أن تتصرف كما فعلت، ومن موقعها كأحد أعمدة الفقه ، والله تعالى يقول في محكم كتابه .

ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذابا عظيما[45] .

فالإسلام يحتفظ للفرد بحق الحياة الآمنة المطمئنة التي لا يشبوها خوف ولا تهديد، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يسلبها منه بقتل أو اعتداء حتى الجنين في بطن أمه ـ ومن يفعل ذلك يعد في نظره مجرما يقام عليه الحد " ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب"[46] وحقوق الإنسان يجب أن تتمتع بحماية النظام والقانون وإلا سيلجأ إلى التمرد والطغيان والاضطهاد . وهذا ماكانت تقصده الحميراء : الكشف عن الحركة المسلحة التي أودت بحياة الخليفة ومعاقبتها، ثم جعل الأمر شورى بين الناس، يختارون خليفتهم . الحقيقة أن مواقف الناس تباينت منه إبان محنته فئة

---

* من الصحابيات اللائي يسألها في الفرائض أم سليم ـ أم الدرداء ، فاطمة بنت قيس

45- سورة النساء الآية 92 .

46- سورة البقرة الآية 179.

قتلته، وفئة حرضت على قتله، وفئة خذلته، وأخرى عجزت عن نصرته، وكان بوسع الثوار أن يتجنبوا قتله ويقتصروا على حبسه ومصادرة أمواله .

وقد سبق لعائشة أن عاتبته حينما مس بحقوق الناس ومصالحهم وحرياتهم، فكيف لاتقف وقفة صارمة أمام الذين اعتدوا على حق من حقوق الله. فالله هو واهب الحياة وهو وحده الذي بإمكانه أن ينزعها من صاحبها!

كثيرة هي الحقائق والمعطيات التي تجعل الباحث في كتب التاريخ والسير يتوصل إلى أنه لولا طمع طلحة والزبير في الخلافة أو المشاركة فيها على الأقل ماحدثت حرب الجمل ! لكن يصعب عليه أن يصدق أن الحرب ماكان لها أن تقع لولا أن عائشة كانت تكره عليا منذ حادثة الأفك وأشياء أخرى (...) !!! لقد حملت حرب الجمل التي قادتها البطلة اعنف أشكال الصراع السياسي إلى المجتمع الإسلامي، وماعكسه من مكونات أولية للصراع الاجتماعي، واتخذت شكلا دينيا رغم أن جوهرها اجتماعي سياسي بالأساس فما هي البيئة التي صقلت هذه الشخصية التي لم ينصفها التاريخ !

فالحميراء ابنة أبي بكر الصديق اعلم العرب بالعرب، وارواها لمناقبها ومثالبها، واعرفها، بخيرها وشرها. كان ذا مال وفير وتجارة واسعة يجتمع إلى مجلسه كبراء أهل مكة لما يجدون عنده من طريف الحديث وغريب الشعر. كان بيته خلية إسلامية تشكل أعضاؤها من أبنائه . تقول أسماء "ماعرفت أبي إلا وهو يدين بالدين، وقد رجع إلينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام فمارمنا حتى أسلمنا وأسلم أكثر جلسائه " .

ولم يتوانى في انفاق ماله الذي كان ثمرة كده وسعيه وكفاحه في سبيل نشر الدعوة . لقي في مسجده الذي بناه على بابه في بني جمع حيث رغب عن جوار الكل راغبا في جوار ربه جميع أنواع المكاره ، متجرعا المرارة في صبر وثبات. كان محبوبا لأدبه وعلمه وعذب حديثه واستمالته الناس إلى الدين الجديد حتى قيل عنه " **لمن أسلم بدعاء أبي بكر أكثر ممن أسلم بالسيف**" وضمن الذين أسلموا على يديه خمسة من أهل الشورى : طلحة والزبير. عبد الرحمان بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن العاص (...) وأوذي حتى بلغ جهده واستأذن النبي (ص) في الهجرة فإذن له،

فأقبل يريد المدينة فتلقاه الكناني سيد الاحابيش فعقد له جوارا وقال : " والله لا ادع مثلك يخرج من بين اخشبي مكة" فلما عاد إلى مكة عاد إلى مسجده وصنيعه . فمشت قريش إلى جاره وعظموه الأمر قائلين : قد أفسد أحداثنا وعبيدنا واماءنا ونساءنا في منازلنا !! فمشى إليه الكناني وقال له : ليس على هذا أعطيتك الجوار. ادخل بيتك واصنع به مابدا لك ! قال أبو بكر أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ فلما قطعا الجوار وترادا العهد لقي أبوبكر رضي الله عنه من الأذى والذل والضرب والاستخفاف[47]، حتى إذا جاءه (ص) بعد ثلاثة عشرة سنة من الصحبة، ونزل على سريره في وقت لم يكن الصديق ينتظره فيه ليخبره أن الله قد أذن له في الهجرة، ولم يكن بالبيت غير عائشة وأسماء اللتين جهزتا لهما الراحلتين ولم يعلم بخروجها غيرهما وعبد الله ـ قتيل الطائف ـ أخوهما الذي كان يتجسس لهما أخبار مكة يبيت عندها ويدلج في السحر ويصبح مع قريش. ولم يطلع على أمرهما غير عامر بن فهيرة وأسماء التي كانت تأتيهما بالقوت (...) من هذه الأسرة المناضلة خرجت الحميراء لتكون زوجة لأول سياسي وأول قائد وأول حاكم في الإسلام .

لئن كانت تجد على علي ماتجد عليه فلن يكون خروجها لإثارة الفتنة والنيل منه مبنيا على ماينطوي عليه قلبها من الشنآن . جاءها يوم الجمل وهي على هودجها عبد الله بن بذيل بن ورقاء الخزاعي فقال لها : يا أم المومنين أتعلمين أني أتيتك عندما قتل عثمان فقلت : ماتأمرينني فقلت : ألزم عليّاً* ولم تكن عائشة في فترة من فترات حياتها بالمراة التي يستهويها مايستهوي النساء مما يدخل في إطار الشؤون الميدانية الخاصة بهن تبعا لتقسيم الأدوار المتعارف عليه، لقد كانت الفقيهة نسيجا وحدها في متابعة كل مايجري من أحداث العالم الخارجي الذي كان مقصورا على الرجال،

47- الجاحظ : الرسائل السياسة ص 145

* عامر بن مهيرة وأي أبي بكر وعتيبة ثلاث مرات

وعايشت عن قرب الأحداث والظروف التي واكبت بيعة الخلفاء الراشدين، والمشكلة الأولى التي واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول (ص) لعدم وجود أي نص مكتوب أو غير مكتوب يبين شكل الحكم في الإسلام أو كيفية تعيين الخليفة، انطلاقا من بيعة أبيها وماحدث فيها من جدل بين زعماء الأنصار والمهاجرين في السقيفة.

أولا : حول تحديد الذين يحق لهم اختيار الخليفة، حيث جرى حصرهم في الأنصار والمهاجرين واستثنوا الذين أسلموا بعد الفتح (لاهجرة بعد الفتح) .

ثانيا : تحديد القبيلة التي يجب أن يختار منها الخليفة وهي المشكلة التي قامت حولها نزاعات حادة، وملاسنات بين الأنصار والمهاجرين حيث كانت كل فئة ترى نفسها الأجدر بأن يختار خليفة المسلمين منها .

فالأنصار احتجوا بكون الهجرة كانت إلى ديارهم والإسلام لم ينتشر إلا بفضلهم، إذ هم الذين آووا الرسول ونصروه وأخضعوا العرب بسيوفهم إلى الإسلام.

واحتج المهاجرون بأنهم عشيرة النبي والخلافة يجب أن تكون فيهم طبقا للأعراف والتقاليد السائدة وأسندوا للنبي قوله " الخلافة في قريش" أو " الأمامة في قريش " 48 .

وخطب الحباب بن المنذر زعيم الأنصار مبينا فضلهم وختم بقوله : فإن أبى هؤلاء الا ماسمعتم " فمنا أمير ومنهم أمير " فأجابه عمر بن الخطاب : «هيهات لايجتمع سيفان في غمد واحد » والله لاترضى العرب

48- رواه البخاري

أن تؤمركم ونبيها من غيركم . ولكن العرب لاينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، وأولو الأمر منهم. لنا بذلك على من خالفنا الحجة الظاهرة والسلطان المبين.

من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياءه وعشيرته إلا مدل باطل أو متجانف لاثم أو متورط في هلكة [49] .

وحدث انقسام في صفوف الأنصار، فمال بشير بن سعد الخزرجي عن ابن عمه سعد بن عبادة لما رأى التحام الناس حوله، وانقسام آخر في صفوف المهاجرين إذ اعترض بنو هاشم على انتخاب أبي بكر لكونه لاينتمي إلى أسرة رسول الله، مما يتعارض والأعراف السائدة في الجزيرة، نحن إذن أمام ثلاثة أجنحة .

* جناح سعد بن عبادة والحباب بن المنذر .

* جناح أ بو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح .

* جناح علي بن أبي طالب وفاطمة (بنو هاشم) الذين لم يبايعوا أبابكر في الاجتماع الذي عقد في المسجد في اليوم الموالي، ولما سأل علي الذي غاب عن اجتماع السقيفة لانشغاله بتجهيز الرسول ودفنه : ماذا قالت قريش : أجابوه

احتجت بأنها شجرة رسول الله .

قال : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

ولم يقدم علي على المطالبة بالخلافة خوفا من انقسام المسلمين وتعرض الإسلام للخطر .

---

49 ـ أبو جرير الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ج 2 ص 243

تأكدت الفقيهة أن الخلافة خضعت لعملية الانتقاء أولا، والتوجه السياسي الذي يقتضي الكفاءة والمقدرة ومصلحة الدولة ثانيا، وأن أباها أصبح رئيسا بفضل القوة البشرية التي ساندته . فرغم الخلاف الحاد الذي شهدته السقيفة فالجميع أقر في النهاية لأبيها بالخلافة لميل الكفة لجهته . واستوعبت أن عمر هو الذي شيد هذه البيعة ، وقزّم رقم المخالفين، معتمدا على منطق عشائري " إن العرب لاترضي أن تؤمركم ونبيهم من غيركم ! ولكن العرب إنما تولي أمرها لمن كانت النبوة فيهم ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين " ثم أضاف" من ذا الذي ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته" [50] وحسم الصراع لصالح الأرستقراطية التيوقراطية .

وسبق لأبي بكر أن فصل بالعبارة لاتدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. وروى عن النبي " الأئمة من قريش" حديث شكل محور بناء السلطة الإسلامية رابطا الخلافة مباشرة بعلاقات انتاج الإنسان . وهي مسألة شغلت الحيز الكبير من مفهوم العصبية عند ابن خلدون والماوردي في الأحكام السلطانية.

وقبل موت أبي بكر أخذ البيعة لعمر بن الخطاب من بعده، وانحصرت المعارضة في كبار الصحابة لخوفهم عمر وشدته في الحق، لكن سرعان مالتفوا حوله وبايعوه إقرارا له بمكانته التاريخية . انتقال الخلافة بهذه الطريقة كان أمرا طبيعيا لأن الشيخين كانا بمثابة وزيري الرسول في حياته، يدير الأمور بمشاركتها . وقبل أن يموت عمر بطعنات خنجر أبي لؤلؤة ترك أمر الخلافة بين عدد من الصحابة حصرهم في ستة، معتبرا سبقهم إلى الإسلام وبلاءهم في الجهاد لانتشاره، يختارون خليفة من بينهم دون أن يقع اختياره على واحد بعينه كما فعل أبوبكر، وحصر مدة الاختيار في ثلاثة أيام .

50- تاريخ العرب ج 3 ص 218- 223

* أهل الشورى : علي بن أبي طالب عثمان بن عفان، عبد الرحمان بن عوف سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله ثم استدعى هؤلاء الستة وقال لهم « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولايكون هذا الأمر فيكم. وقد قبض رسول الله (ص) وهو راض عنكم» ثم أضاف إليهم ابنه عبد الله يحضر مستشارا ولايكون له من الأمر شيء [51].

من هنا يمكن الحديث عن بداية الصراع والتسابق نحو السلطة إذ دبت الأطماع في قلوب الستة وجعل كل واحد منهم يرى نفسه مؤهلالها، . كما أن عمر في اختياره اعتمد على المهاجرين مستثنيا الأنصار !!! هذه المرحلة شكلت بداية المشاحنات التي سيشهدها فضاء الحياة الإسلامية . والتي ستؤدي إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان الذي كان عمر قد حذره يوم اختياره لأعضاء مجلس الشورى من تسليط أقاربه على رقاب الناس. " لكاني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيئ [52].

لم تكن عائشة غائبة عن الأحداث الرئيسية في الحياة الإسلامية، أو تعيش على هامشها ، بل كانت تعيشها من داخلها وتتأملها بفكر ثاقب . استوعبت أحداث السقيفة، والكيفية التي انتقلت بها السلطة إلى الخليفة الثالث، وهي مخالفة لتلك التي ولي بواسطتها أبوها وعمر بن الخطاب. الاختيار الآن أصبح بيد القادة الكبار والأغنياء والتجار، وعثمان لم يكن متميزا عن بقية أعضاء مجلس الشورى وإنما كان واحدا منهم . ، والمناقشة على الخلافة قد دخلت مرحلة جديدة يمكن اعتبارها سابقة، أصبحت بين

51- ابن قتيبة ج 2 ص 580

52- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج 7 ص 62 .

رجال الصف الثاني، وهؤلاء لايتميزون عنها لا بعلم ولا بفقه ولابجهاد سوى أنهم ذكور .

لذا كان موقفها في حرب الجمل موقف المؤمن بقضية والمستميت في الدفاع عنها بوعي ومسؤولية، بعدما تكونت لديها القناعة بأن القوة البشرية هي مصدر السلطة، وهي حقيقية أفرزتها تطورات حياة المجتمع.

تولى الخلافة عثمان بن عفان ورقعة الأمة الإسلامية قد توسعت، وأصبح المسلمون سادة العالم لايخافون من تهديد خارجي أو قتال يداهمهم. مضت مرحلة الجهاد لتحل محلها مرحلة المصالح والأغراض والمطامع والتهافت على حطام الدنيا، في غياب الوازع الأخلاقي وعجز مؤسسات الدولة وتشريعاتها على مواكبة هذا التوسع، وتفاقم المشاكل في عهد عثمان الذي أفسخ المجال لذوي النفوذ من أقاربه وأصحاب المصالح، فأصبحوا هم صانعي القرار. ولكون تشريع الدولة بقي رهينا باجتهادات المسلمين حسب مَاتقتضيه ظروفهم في عهد الرسول وأبوبكر وعمر. فتطور الدولة العربية الإسلامية مع الفتوحات وتدفق الغنائم وانتشار رقعة الإسلام جعل النظام عاجزا عن استيعاب هذه التطورات والمستجدات الاجتماعية والحضارية. فرفض عثمان انتقادات الثوار لأنه كان يرى أن من اختصاصه كخليفة التصرف في شوؤن الدولة دون قيد. قالوا له وقد استفحل الأمر" والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أودع" لكنه أصّر على البقاء قائلا" لم أكن لأخلع سربا لاسربلنيه الله" فحاصروه أربعين ليلة ثم تسوروا الجدار وقتلوه.

وبقتله تسللت الاطماع السياسية إلى القلوب وبدأ التخطيط للاقتتال من أجل السلطة.

لم يكن عثمان ودمه هو سبب قيام الفتنة، بل الهدف الرئيسي هو البحث عن السلطة. تولى عهد الخلفاء التاريخيين وهي تجربة ارتبطت بالأعراف والمؤسسات والعلائق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمع مكة والمدينة المجسد في المجتمع الإسلامي الأول. تمناها طلحة لنفسه بعد أبي بكر، واستطاع تأليف قلوب قريش في آخر خلافة عثمان هو والزبير. وبمقتل عثمان أصبح كل واحد يراها لنفسه دون منازع، تحالفا مع عائشة لأنها كانت مسموعة الكلمة، ومحترمة من طرف المسلمين عامة، فما سرّ تحالفها معها ؟ !

كانت عائشة طيلة حياتها تجاهر بلسانها، أقوالها في عثمان معروفة . فقد كانت على رأس الناقمين عليه والمناوئين للطريقة التي ساس بها الأمة. ثورتها كانت للطريقة الوحشية التي اعتدي بها عليه والتي تمس كرامة المواطن والدولة الإسلامية في جوهرها «كان الذي كان من قتل عثمان (ض) وماانتهك منه ، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبعج بطنه بالحراب، وفري أوداجه بالمشاقص، وشخذ هامته بالعمد، مع كفه السبط ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة وصلى للقبلة وأكل الذبيحة، ومع ضرب نسائه بحضرته واقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها حتى أطنوا أصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم وكاسرا من غربهم، مع وطئهم في أضلاعه بعد موته والقائهم على المزبلة جسده مجردا بعد سحبه (...) بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم واقحامه لهم، ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام كدم المؤمن الآمن ارتدّ بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أوقتل مؤمنا على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم منه عطية ، ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة ولايجهز منها على

جريح . ثم مع ذلك كله دمروا عليه وعلى أزواجه وحر مه وهو جالس في محرابه ، ومصحفه يلوح في حجره لايرى أن موحدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله" [53] .

إضافة إلى التصرفات اللاديمقراطية واللاإنسانية التي انتهجها في حق بعض الصحابة كابن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري. **أما القتل فكانت تتوقعه ألم تقل حين سمعت الخبر " قتله ذنبه " وحتى المستحق للقتل فلا يجوز أن يمنع عنه الطعام والشراب. فعلي عليه السلام لم يمنع أهل الشام الماء في حرب صفين وهو يقاتلهم فكيف لعثمان الذي لم يقع الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه !!!**

كيف لاتنزعج بمثل هذه الطريقة في القتل، ولاتعتبرها ظلما وهي صحابية وابنة صحابي، وزوجة حامل الرسالة، وفقيهة الإسلام البارزة، "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" وهذا ماعبر عنه أبو الأسود الذؤلي قال : بعثني وعمران بن حصين* عثمان بن حنيف إلى عائشة فقلنا : ياأم المؤمنين أخبرينا عن مسيرك أهذا عهد عهده رسول الله (ص) أم رأي رأيته ؟

قالت : بل هو رأي رأيته حين قتل الخليفة، انا نقمنا عليه ضربه بالسوط وموقع السحابة المحماة [54] وأمرة سعيد والوليد [55] فعدوتم عليه واستحللتم منه الحرم الثلاث : حرمة البلد وحرمة الخلافة وحرمه الشهر الحرام، بعد **أن مصناه كما يماص الإناء فاستنقى، فركبتم منه هذه ظالمين ! فغضبنا لكم من سوط عثمان ولانغضب لعثمان من سيفكم »! .**

53ـ رسائل الجاحظ، الرسائل الكلامية، كشاف آثار الجاحظ ص 139 - 140

* عمران بن حصين الخزاعي، كان من أفاضل الصحابة مات بالبصرة سنة 52 هـ

54 ـ الأرض التي حماها عمر لرعي إبل الصدقة فلا يرعى فيها أحد غير تلك الإبل

55ـ سعيد بن العاص والوليد بن عقبة

قلت فما أنت وسيفنا وسوط عثمان، وأنت حبيس رسول الله أمرك أن تقري في بيتك، فجئت تضر بين الناس بعضهم ببعض. قالت : وهل أحد يقاتلني أو تقول غير هذا !!

ماحدث في عهد عثمان يستوجب الثورة فعلا لأنه خرج عن العدل والمساواة وبدأ يتعامل مع أموال الدولة وكأنها أمواله الخاصة، وانحرف عن العدل الاجتماعي وبدأ النمط الإقطاعي يسود في خلافته. ذكر البلادري إن أول من أقطع العراق عثمان [56] وكان يقتني ضياعا تدر عليه مائة ألف دينار سنويا[57] وخص بني جلدته من الأرسقراطية السفيانية بمعظم الإقطاعيات في الحجاز أو الولايات، وحمى مراعي المدينة، وجعلها حكرا على دواب بني أمية[58] وتحولت الصوافي التي كانت موقوفة على بيت المال إلى إقطاعيات له ولذويه[59] وقفزت الأرستقراطية القديمة على حساب الأرستقراطية البيوقراطية .

وتبلورت التيارات الاجتماعية وتطورت إلى تيارات سياسية التقت حول قيادتها ، وهي الخطوة التي مهدت لظهور الأحزاب بعد مقتل عثمان، مما يؤكد تأثير الأساس الاقتصادي في صياغة التيارات السياسية. وانقسم الناس إلى ثلاث طوائف :

* فرقة أقامت على خلافة علي بن أبي طالب

* فرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وهم سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن أبي بكر.

* أصحاب الجمل .

56- فتوح البلدان القاهرة 1901 ص 183

57- المسعودي مروج الذهب ج I ص 301 سنة 1303 هـ

58- يحي بن آدام الخراج القاهرة 1347 هـ ص 79

59- أحمد أمين فجر الإسلام ص 238 .

أما تكتلها مع طلحة والزبير فقد يكون من أجل استراتيجية رسمتها في ذهنها لإدراكها أن السلطة أصبحت خاضعة للمنافسة بين المرشحين من رجال الصف الثاني، وهي في مستواهم إن لم تكن تتميز عن بعضهم، والتركيبة الاجتماعية للدولة الجديدة لم تعد لصالح علي الذي لم يكد يتولى الخلافة حتى أعلن معاوية العصيان. ولكون المرأة عبر تاريخها الاجتماعي لايمكنها البروز في المراكز القيادية إلا عبر الرجل فقد كانت الحميراء تعي أن طريقة الحكم مشروع سياسي سرّي يحاول الاهتداء بقيم الدين الذي لايستثنيها من أن تكون طرفا فيه. الاختيار إذن أصبح اختيار مصالح ، وعلي لم يعد يهتم بالقصاص من قتله عثمان، بل كان يرعاهم ويعينهم في المناصب المهمة، فمالك الاشتر من قواده وكان يقول عنه " كان الاشتر لي كما كنت لرسول الله، مع أنه كان من المحرضين على عثمان والساعيين في قتله، كما كان علي من الذين ألحّوا على عثمان بمجرد تولية الخلافة أن يقتص من عبد الله بن عمر، قاتل الهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة، والذي ثأر لنفسه من غير بينة فقتل رجلا مسلما وقتل ذميين من غير الحق ودون أن يخوله السلطان قتلهما، فكيف به لايفعل نفس الشيء بالذين قتلوا الخليفة. ومعاوية كان بإمكانه أن يبعث إلى عثمان من الشام من يحميه !!! معطيات تؤكد الجوهر الدنيوي للمجتمع الإسلامي. أيضا ما **يؤكد أن عائشة رسمت استراتيجيتها الاتصالات التي قامت بها مع بعض أمهات المؤمنين املا في تشكيل جبهة نسائية لا لانتزاع مجموعة من الحقوق فقط بل لتطبيق مامنحه إياها الوحي . فالقرآن نزل يخاطب الذكور والإناث على السواء، ولم ينزل فيه ما يمنعها في ممارسة حقوقها المدنية والسياسية على رأسها السلطة، التي لانص يستثنيها منها، وعدم النص على نظام الحكم دفع الصحابة إلى تبني النظام القبلي في اختيار**

60 ـ الماوردي الأحكام السلطانية ص 42

61 - الجاحظ : كتاب الإصابة فيما استدركته عائشة على الصحابة

الخليفة والقائم على الاستخلاف والشورى . ورئاسة القبيلة في النظام القبلي لم تكن وراثية بالمعنى المتعارف عليه، إذ يبقى الأمر شورى بين أهل الحل والعقد ".

الامامة تنعقد من وجهتين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد والثاني بعهد الامامة [60] ومادامت المناقشة قد أصبحت بين رجال الصف الثاني فلم لاتكون المساواة في المناصب القيادية : فأولى الناس بالمسلمين اعلمهم بدينهم، وعائشة كانت تتقن العلوم وتورد الاشكالات على الفحول ، واستدركت على الصحابة في العديد من الأحاديث، كعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وابن عباس، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب وابن الزبير وزيد وأبى الدرداء وأبي سعيد والبراء وفاطمة بنت قيس [61]

وصفات الإمام الأفضل هي العقل والعلم والحزم والعزم وهي متوفرة فيها، إضافة إلى علمها بالحلال والحرام والشعر والطب بالإضافة إلى أخذها بسيرة رسول الله (ص). وقضية الإمامة لها طابع فقهي تشريعي وحصر الماوردي شروطها في سبعة :

1) العدالة

2) العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والاحكام

3) سلامة الأعضاء

5) الرأي المفضي إلى سياسة الرعية

6) الشجاعة والنجدة

7) النسب (القرشي)

وابن عربي الفقيه المالكي يسقط النسب القريشي مستندا إلى قوله تعالى" ياداوود إنا جعلناك خليفة ، وهو غير قرشي .

ويربط ابن خلدون اشتراط النسب القرشي في الخليفة "باعتبار العصبة التي تكون بها الحماية والمطالبة" فالشوكة والقوة في صدر الإسلام كانت لقريش فكان اشتراط الشرع النسب القرشي بمثابة اشتراط القوة والغلبة أي الكفاية.

ولماذا لا يمكن الخروج عن الخليفة، وهو بشر قد يصيب وقد يخطىء ؟ والخلافة ليست مركزا دينيا، والذين روجوا لهذا المفهوم هم السلاطين" طاعة الأئمة من طاعة الله" والرسول والخلفاء من بعده لم يضعوا أسسا للحكم، لكنهم اجتهدوا في تنفيذ مبادئه. وولاية الأمر تعني النظر في مصالح المسلمين، ولا غنى لولي الأمر عن المشاورة، وكان (ص) كثيرا المشاورة لأصحابه يمارس مسؤولياته وسط المسلمين كرسول، بإخضاعها لمسألة الشورى التي تنبني عليها الصحبة" فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ماغضبوا هم يغفرون، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم [62]

فالحكم في الإسلام ع منذ هد النبوة كان يقوم على الشورى

" وأمرهم شورى بينهم"

" شاورهم في الأمر"

وحديث رسول الله" أنتم أدرى بشؤون دنياكم" فيما ليس فيه نص مشهور ."

62ـ سورة الشورى الآيات 32 إلى 52 .

والرعاية بمعنى حفظ الأمانة والمسؤولية التي تضمنها حديث " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[63]" موزعة على جميع أفراد المجتمع كل من واقع مسؤوليته التي هو مؤهل لأدائها، فالقاسم المشترك بين الأطراف المكونة للحديث هي المسؤولية .وأولو الأمر ليسوا رجال السياسة فقط بل رجال العلم أيضا لأن الهدف هو الحفاظ على مصلحة المسلمين ورعاية أمور الناس : "والله لوان عقال شاة ضاع في أقاصي الغرب لخشي عمران يسأل عنه يوم القيامة"

وهذه المهمة قد يقوم بها الرجل وقد تقوم بها المرأة الكفؤ سيما وقد كان لها دور مشرف في منصب الزعامة والرئاسة فبلقيس ملكة سبأ حكمت بالشكل الديمقراطي الحديث القائم على الشورى، واقتنع رجالها بتفويض الأمر إليها فيما يتعلق بمصير أمة برمتها، ولم يعترض على قيادتها أحد بحجة تقاليد العرب آنذاك " ياأيها الملا افتوني في أمري ماكنت قاطعة امرا حتى تشهدون" [64] موقف يدل على حضارة عرب تلك الفترة الزمنية وارتفاع مستوى وعيهم السياسي والاجتماعي .

واستطاعت بحنكتها أن تكسب نبي الله سليمان وتجنب شعبها ويلات الحرب .

وساست زنوبيا إدارة دولة تدمر سياسيا وعسكريا بعد مقتل زوجها ووسعت رقعة بلادها، أهلتها لذلك قوة شخصيتها واحترام شعبها لها، والحفاظ على استقلال بلادها وحرية أهلها، رغم الصراعات المحلية

63 -البخاري، صحيح البخاري ج 9 ص 111 عن ابن عمر.

64 ـ سورة النمل الآية 32 .

والإقليمية مع الامبراطورية الفارسية والرومانية . وصفها المؤرخ الروماني "Ribilous" كانت زنوبيا أنبل ملكات الشرق قاطبة، وأجملهن أيضا، بيضاء البشرة مشوبة بالحمرة، لها عينان سودوان ولايثبت أمام لحظها الساحر الجذاب أعتى الرجال وأشدهم غلظة . وكان صوتها صافيا واضح النبرات، وان مال قليلا إلى جرس الرجولة " ويذكر أنها عاصرت كليوباترا الملكة المصرية وكانت بينهما مراسلات"

لقد كانت بحق ملكة اسطورية عربية الأصل وكانت تتمسك باسمهاالعربي" زينب رغم اصرار المؤرخين على تسميتها زنوبيا !!!

القائدة العسكرية

يبدو أن الأحداث الدامية التي عاشتها الدولة الإسلامية بعد غياب موسسة النبوة كان الصراع فيها يجري حول إيجاد المؤسسة البديل واعتقدت السلطة أن الاتجاه نحو المركز هو الحل وذهب علي وعثمان ضحية هذه المحاولات. وقد عارض الفكر الصوفي الذي بدأ كينونته الجنينية زهدا مسلكيا عدميا في مجتمع كل شيء فيه يخضع لمنطق التطور والصيرورة في أوج المدنية الإسلامية لأنها أساءت استعمال الدين كوسيلة لاضفاء الشرعية على السلطة الحاكمة ، واستنكر الظلم الاجتماعي والاستبداد.

وكان عبد الله بن عمر ضمن المسلمين البارزين الذين وقفوا من القتال موقف الرفض مع سعد بن مالك، سعد بن أبي وقاص، محمد بن سلمة الأنصاري، وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله[65] وكذا الصراعات السياسية التي دفعت إليه دون إبداء الرأي الصريح أو تحديد المسؤوليات وبقي رفضهم خارج المعركة، معتزلين كلا الفريقين زاهدين عن ممارسة الحياة العامة، ممتنعين عن محاربة علي والمحاربة معه" لايحل قتال علي ولا القتال معه".

لا شك أن عائشة كانت تتابع التحولات التي يعيشها العالم الإسلامي منذ بيعة العقبة الأولى والثانية التي دشنت الدعوة المحمدية عبرها مرحلة الهجرة إلى المدينة، والشروع في تأسيس الدولة (بيعة القتال) والتي شاركت فيها المرأة مرورا بالمحطات الرئيسية التي كانت من ابداع المسلمين ذكورا وإناثا.

65ـ الحسن بن موسى النوبختي : فرقة الشيعة ـ استانبول 1931 طبعة ه . تبر ص 5 .

لذا قررت ترتيب الأمور بينها وبين الناكثين عن طريق التكتل، وبينها وبين أمهات المومنين لتحقيق طموح المرأة السياسي الذي ظلت تدافع عنه بشكل فردي عن طريق المعارضة متى واتتها الفرصة، يؤكد مانرمي إليه المراسلات التي تمت بين عائشة وبقية أمهات المومنين، وتوضح الستراتيجية التي رسمتها خصوصا اللواتي كانت لهن المبادرة في إطار الحياة الاجتماعية .

بدأت بأم سلمة لكونها من الراسخات في الإسلام والمدافعة الرئيسية عن قضية المرأة بمفهومنا المعاصر في مجتمع تميز بتبعيتها ، فهي القائلة !

يارسول الله لا نسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء (أخرجه الحاكم) لينزل قوله تعالى : "فاستجاب لهم ربهم أني لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى"

وقالت كذلك : يارسول الله تذكر الرجال ولاتذكر النساء. فاستجابت لها السماء : «إن المسلمين والمسلمات» (...) وكانت ترقب مجريات الأمور وتطور الأحداث والوقائع فتجاهد بما تراه أساسيا في استقامة الناس وعدم انحرافهم، خاصة أصحاب السلطان من الخلفاء والولاة. دخلت على عثمان أيام خلافته وحدثته قائلة : يابني مالي أرى رعيتك عنك نافرين، وعن جنابك ناقرين، ولاتقف طريقا كان رسول الله يحبها، ولاتقتد بزند كان عليه السلام أكباه وتوخ حيث توخى صاحباك فإنهما ثكما الأمر ثكما ولم يظلما " هذا حق أمومتي قضيته إليك وإن عليك حق الطاعة .

قابلت عائشة أم سلمة فقالت لها : ياابنة بني أمية أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله، وأنت كبيرة أمهات المومنين وكان رسول الله يقسم لنا من بيتك، وكان جبريل أكثر مايكون في منزلك، فقالت أم سلمة لأمر ماقلت هذه المقالة.

أجابت عائشة : إن عبد الله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائما، في شهر حرام، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحة فاخرجي معنا، لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا فقالت أم سلمة : انك كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه اخبث القول، وماكان اسمه عندك إلاّ نعثلا، وانك تعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله. ورغم تذكير أم سلمة لعائشة بمجموعة من الوقائع التي تثبت أن خروجها على علي معناه مخالفة رسول الله في صحبته له،وإقرار عائشة لكل ماذكرتها به لم تثن عزمها .

وروي هشام بن محمد الكلبي في كتاب الجمل أن أم سلمة كتب إلى علي عليه السلام من مكة .

أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومعهم ابن الخزان عبد الله بن عامر بن كريز، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوما، وأنهم يطلبون بدمه، والله كافيهم بحوله وقوته، ولولا مانهانا الله عنه من الخروج وأمرنا به من لزوم البيوت، لم أدع الخروج إليك والنصرة لك، ولكني باعثة نحوك ابني عدل نفسي عمر بن أبي سلمة فاستوص به ياأمير المومنين خيرا .

وكتبت إلى عائشة .

أنك جنة بين رسول الله وبين أمته، وأن الحجاب دونك لمضروب على حرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عقيراك فلا تصحريها. لو ذكرتك قولة من رسول الله (ص) تعرفينها لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة. ماكنت قائلة لرسول الله لو لقيك ناصة ، قعودك من منهل إلى منهل ، قد تركت عهيداه وهتكت ستره. إن عمود الدين لايقوم بالنساء، وصدعه لايرأب بهن حماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض، اجعلي قاعدة بيتك قبرك حتى تلقينه وأنت على ذلك.

أجابتها عائشة

ماأعرفني بنصحك، واقبلي لوعظك، وليس الأمر حيث تذهبين، ماأنا بعمية عن رأيك، فإن أقم ففي غير حرج، وإن أخرج ففي اصلاح بين فئتين من المسلمين.

وردت عليها أم سلمة :

إنك باب بين النبي (ص) وبين الناس، فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دخل على رسول الله وآله في حرمه وصورته واستبيح ماحماه، فلا تكوني أنت سبب ذلك بالخروج الذي لايجب عليك فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك.

جواب عائشة يؤكد اقتناعها بمسؤوليتها وإيمانها بأن الفضيلة في الخروج لأن الشقاق يمكن أن يصلح بالنساء كما يجمع بالرجال وليس غريبا الا تستجيب أم سلمة لعائشة لسببين

ـ الأول عامل السن فأم سلمة كانت قد جاوزت الستين من عمرها.

ـ الثاني أنها لم تكن من حزبها بل كانت على رأس الحزب المناوئ لها. ففي حديث لعائشة عن حزب النساء إن حزبها كان يضم حفصة وسودة وصفية [66] والحزب الآخر كان يضم أم سلمة وبقية زوجات الرسول

وبعثت عائشة إلى حفصة تسألها الخروج معها، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فأتى أخته فعزم عليها،ا فأقامت وحطت الرجال بعد ماهمت، مما يؤكد أن ميل تلك الطبقة للزهد كان مرتبطا بالثورة على السلطة القائمة .

66 - السمط الثمين ص 80.

ومن المدينة كتب الاشتر إلى عائشة بمكة .

أما بعد : فإنك ضعينة رسول الله، وقد أمرك أن تقري في بيتك، فإن فعلت فهو خير لك، فإن ابيت الا أن تأخذي منسانك وتلقي جلبابك، وتبدى للناس شعيراتك، قاتلتك حتى اردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك.

وردت عليه الحميراء بلهجة حادة من جنس أسلوبه !

أما بعد فإنك أول العرب شب الفتنة ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة، وسعى في قتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم. وقد جاءني كتابك، وفهمت مافيه، ويكفينك الله وكل من أصبح مماثلا لك في ضلالك وغيك إن شاء الله .

ولما وصلت عائشة وطلحة والزبير إلى صفر أبي موسى بالقرب من البصرة، أرسل عثمان بن حنيف عامل علي على البصرة أبا الأسود الدئلي فدخل عليها وسألها عن سبب مجيئها فقالت : اطلب بدم عثمان قال : إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد قالت صدقت ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة، وجئت استنهض أهل البصرة لقتاله . انغضب لكم من سوط عثمان ولاتغضب لعثمان من سيوفكم. فقال لها : ماأنت من السوط والسيف، انما أنت حبيس رسول اله، أمرك أن تقري في بيتك وتتلي كتاب ربك وليس على النساء قتال ، ولالهن الطلب بالدماء، وإن عليا لأولى منك وأمس رحما فإنهما ابنا عبد مناف، فقالت : لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه، أفتظن يا أبا الأسود أن أحدا يقدم على قتالي قال : أما والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد .

ولما نزل علي البصرة كتبت إلى زيد بن صوحان العبدي .

من عائشة بنت أبي بكر أم المومنين حبيبة حبيب الله إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

أما بعد : فاقم في بيتك ، وخذل الناس عن علي عليه السلام وليبلغني عنك ماأحب، فإنك أوثق أهلي عندي والسلام .

فردّ عليها .

من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر.

أما بعد : فإن الله أمرك بأمر وأمرنا بأمر، أمرك أن تقري في بيتك، وأمرنا أن نجاهد. وقد أتاني كتابك، فأمرتني أن أصنع خلاف ما أمرني الله فأكون قد صنعت ماأمرك الله به، وصنعت ماأمرني الله به . فأمرك عندي غير مطاع، وكتابك غير مجاب والسلام.

ولما تجهز الناس وأخذوا مصافهم للحرب، خطب طلحة والزبير قائلين : جئناكم نطلب بدم عثمان ونجعل الأمر شورى بين المسلمين. فارتفعت أصوات المؤيدين والمعارضين. وأقبلت عائشة على جملها فنادت بصوت عال :

أيها الناس ، أقلوا الكلام واسكتوا فسكت الجميع (ثلاثة آلاف مقاتل) **ثم خطبت كزعيمة سياسية "أن أمير المومنين عثمان كان قد غير وبدل ، ثم لم يلبث يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوما تائبا. وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط، وتأميره الشبان وحمايته موضع الغمامة، فقتلوه محرما في حرمة الشهر وحرمة البلد ذبحا كما يذبح الجمل !**

ألا وأن قريشيا قد رمت غرضها بنبالها، وأدمت أفواهها بأيديها، ومانالت بقتلها إياه شيئا، ولاسلكت به سبيلا قاصدا. أما والله ما بلغ من ذنب عثمان مايستحل به دمه، مصتموه كما يماص الثوب الرخيص، ثم عدو تم عليه، فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه . تراني أغضب لكم في سوط عثمان ولسانه ولاأغضب لعثمان من سيوفكم ! ألا أن عثمان قتل مظلوما .

وهي خطبة قائد محنك يستنهض الهمم لاخطبة امرأة مطاعة نساءة متقلبة الرأي [67] .

والتقى الجمعان، ووقف شجعان البصرة يلوذون بجمل البطلة حتى لاتصاب بشر ، والتفوا حوله يستقبلون الموت مستبشرين فرحين فرح المومن بقضية، كلما قتل فريق عوض بفريق آخر والقائدة تدير المعركة وسط الأراجيز الحماسية من فوق جملها، ولم تتوقف إلا بعد أن أمر علي الاشتر بعقر الجمل الذي اتخذه أصحابها قبلة. قال محمد بن عمر الواقدي : ماحفظ رجز قط أكثر من رجز قيل يوم الجمل أكثره لبني ضبة والازد الذين كانوا حول الجمل يحامون عنه. ولقد كانت الرؤوس تبدوعن الكواهل، والأيدي تطيح عن المعاصم، وأقتاب البطن تندلق من الأجواف، وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لاتتخلخل ولاتتزلزل حتى لقد صرخ علي كرم الله وجهه بأعلى صوت : ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان، اعقروه وإلا فنيت العرب، ولايزال السيف قائما وراكعا حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض، فصمدوا له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد وكانت الهزيمة [68] .

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل ننازع الموت إذا الموت نزل

الموت عندنا أحلى من العسل لاعار في الموت إذا حان الأجل

ياآمنا عائش لاتراعي كل بنيك بطل مطاع

ياآمنا يكفي منا دنوه لن يؤخذ الدهر الحطام عنوه

لقد حملت كتب التاريخ والسير التبعة لعائشة وحدها وذهب البعض إلى أنها ماخرجت للحرب، وإنما تعلق الناس بها وشكوا إليها ماوصلوا إليه

67 - عبد السلام ياسين تنوير المومنات ج 2 ص 216

68 - ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج 1 ص 84 .

من عظيم الفتنة، وتهارج الناس ورجوا بركتها في الإصلاح، وطمعوا في أن يستحيي منها ـ وظنت هي كذلك فخرجت مقتدية بقولها : " لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس" أقوال لايمكن تفنيدها بالنظر إلى الاستعدادات التي سبقت الواقعة، وعدد الجيوش المشاركة فيها والمراسلات التي تمت بين عائشة وبعض أمهات المومنين، وبينها وبين الطرف المناوئ الذي يحاول أصحابه اقناعها بثني عزمها، والاتصالات التي اجرتها مع رجال القبائل الذين اتوا للانضمام اليها خارج حدود المدينة... كل هذا يؤكد أنه رغم كونها مسموعة الكلمة لم تكن ممن يتوهمن أو يسقن كالقطيع، بل كانت مواقفها جريئة قياسا للمرحلة التاريخية حيث غياب الموسسات الديمقراطية الحديثة : الدستور والمعارضة المنظمة والصحافة الحرة ... رغم ذلك كله قامت بدورها كقائدة عسكرية، بل كانت هي القائدة العليا الفعلية للجيش، تصدر الأوامر والنواهي وتعين الأمراء وتوجه الرسل بكتبها لمختلف الجهات تصدرها بالعبارة التالية بعد البسملة .

من المرأة عائشة بنت أبي بكر أم المومنين حبيبة حبيب الله،

إلى ابنها الخالص فلان ،

وكيف تستسيغ اتخاد موقف سلبي أو متهور وهي التي اقترن لديها الوعي الاجتماعي بالقاعلية الثقافية فكانت طيلة حياتها تحتج وتغضب وترفع الشكوى وتحرص على قول الحق كلما رأت مايدعو إليه حتى مع النبي(ص)، قالت له مرة : أنت الذي تزعم أنك نبي الله ! ؟ فتبسم واحتمل ذلك كرما منه [69] ثم أن خروجها على رأس الجيش كان بعد نزول الآية 53

69ـ أخرجه أبو يعلي في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الامثال عن عائشة.

من سورة الأحزاب وهي التي تأمر نساء النبي خاصة بالقرار في البيت" وقرن في بيوتكن" وخروجها لم يكن ناتجا عن جهلها لذا لم تتراجع عن قرارها بعد نصيحة أم سلمة وتراجع حفصة، لأنها تعلم بل ترى أن عليها أن تتصرف ثم لماذا ينكر على عائشة مالم ينكر على من سبقها ! ألأنها أنثى وليس من حق الأنثى أن تعترض! فبالأحرى ان تذهب بمعارضتها إلى ساحة الحرب. جريمة لاتغتفر في عرف الرجال. لقد كان أبو بكر وعمر أول من خالف عليا وابتزه حقه في الخلافة ولولا مخالفتهما له ماخالفته عائشة. فغياب علي عن اجتماع السقيفة الذي كانت تتنازع فيه السلطة لانشغاله بتجهيز رسول الله حيث احتجت قريش بأنه شجرته وأن الخلافة يجب أن تكون فيها يجعل عليا طبقا لهذا المنطق الاحق بها لأنه ليس من الشجرة فقط بل ثمرتها " احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.»

واحتج وهو يبايع أبا بكر" **أنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس وتنكرون عليهم حقه.** أما والله لنحن أحق منك بالأمر مادام فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنة رسول الله المطلع بأمر الرعية، القاسم بينهم بالسوية" وأضاف "ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا[70]".

الانشقاق الذي حدث في عهد خلافة علي فرضته طبيعة المرحلة. وخروج عائشة على رأس الجيش كان سيحدث ولو لم يكن علي هو الخليفة. إذ لم يكن هدفها ربيب رسول الله كما يخيل، بل احقاق الحق الذي هو جزء من النشاط السياسي القوي للمرأة المسلمة في السنوات الأولى للإسلام، وقبلها سجلت المعارضة لعمر بن الخطاب وهو يقنن المهر أمام الناس في المسجد تيسيرا لزواج الشباب وأقرها عمر على مبدئها " أصابت امرأة وأخطأ عمر"

70- ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج ص 160

تولى علي الخلافة وسط صراعات عنيفة بعد ماحيل بينه وبينها ثلاث مرات متتالية. ولما أتت إليه بعد انتظار طويل كانت المرحلة تتطلب الحذر في التصرف والكياسة في استعمار السلطة تمشيا مع الجوهر الدنيوي للمجتمع الذي طفا على السطح، إلا أن عليا تصرف معتمدا على التقوى والاخلاص والوعظ والإرشاد لا اعتمادا على الحنكة السياسية : لم يعتمد على تكتيك ولا وضع استراتيجية معينة ... وهي عملية ملازمة لكل عمل سياسي أو قيادي. لم يفرز المؤيدين والمعارضين، الأعداء والأقل عداوة، ولم يفكر في تصفية الأجنحة الخطيرة التي تهدده ليتمكن من تطبيق خطتة السياسة. فضمن جيشه كان من هدفه الحقيقي خلق النشاز وإثارة الفتنة وهم الذين استنفروا جيش القائدة .

وهي عملية اعتمد عليها الرسول (ص) كسياسي، ولولاها مااستطاع توحيد الكتلة الإسلامية في المدينة : تجار قريش المكيين وملاكي ومزارعي الاوس والخروج اليثربيين. ولولا اعتماده على عملية الاستخبارات المنظمة، والتجسس على الأعداء في الداخل والخارج، واستخدام المال استخداما سياسيا لادينيا، واستمالة ذوي النفوذ لتدعيم سياسته بتمكينهم من بعض المكاسب، (المغانم) والمؤلفة قلوبهم، وتصفية بعض المعارضين دون تردد، مستعملا السلطة لخدمة النظام الجديد الذي رسمه، لما نجح في تبليغ الرسالة، أهلته حنكته وعبقريته. فحين يقع الصراع بين علي ومعاوية يوثر الهزيمة مع التقوى والاخلاص على الانتصار بالمكر والخداع. قال له عمه ابن عباس" خادعهم فالحرب خدعة فأجابه : "والله لاأبيع ديني بدنياهم أبدا" والغريب في أمر علي أنه لم ينهج سياسة الرسول (ص) وقد عايشه طيلة حياته تقريبا، ولا سياسة عمر بن الخطاب الذين فهما أن الإسلام نفسه لم يكن سوى ثورة وكفاحا لتغيير وضع معين !!

الخاتمة

المعركة المشجب

ظلت معركة الجمل التي هزم فيها الجيش الذي تقوده القائدة التي لم تغادر أرض البصرة إلا بعد أن سارت على قدميها وسط أرض المعركة وشاهدت أشلاء قتلاها، مقتنعة بما قامت به كزعيمة، بمثابة مشجب علقت عليه جميع النقائص والعيوب التي ألحقت بالمرأة، وجعل الكثير من المهتمين هذه الواقعة منبعا لنسج المرويات التي تقلل من شأنها وعدم قدرتها على القيادة وتحمل المسؤلية. وألبسها رجال الفقه مسحة القداسة وأولوها تأويلات تخدم مصالحهم كعادتهم في تحريف الحوادث التاريخية التي لاتتفق ومذهبهم. ولاغرابة في ذلك فما كتبه مؤرخو الحياة الإسلامية كانت توجهه الاعتبارات السياسية" إذ كانوا يؤرخون في الحياة الإسلامية للخلفاء والولاة والحكام والقادة والفتوح والمعارك وكل مايتعلق بأخبار الساسة المدبرين شؤون العامة [71] .

ولم تعد صفحات التاريخ تذكر عائشة منذ هذه الحادثة التي كانت نقطة سوداء في مسيرة المرأة إلى يومنا هذا، واكتفت بذكر لزومها البيت إلى أن ماتت سنة 57 هـ مع أن هذا الاحتمال يبقى بعيد التصديق في حق من ظلت منذ شبابها تناضل وتشارك في الحياة العامة بجزئياتها فهي عند الشيعة في قرن واحد مع معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ويزيد ومع

71- أمين الخولي تقديم تراجم سيدات بيت النبوة لعائشة عبد الرحمان. باب سكينة .
رواه ابن أبي شيبة.

سائر بني أمية، مع أنها ماقتلت صالحا ولافرضت بيعة على الأمة بالسيف ولااقتنت الدور والقصور والغلمان والجواري !!

ومنهم من جعل أبا بكرة من المعصومين حين قال :

لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل : لما بلغ النبي (ص) أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امراة" .

وسئل مانعك أن تقاتل مع أهل البصرة يوم الجمل فقال يخرج قوم هلكي لايفلحون تقودهم امراة في الجنة [72] " .

وسبق لعمر بن الخطاب أن جلده لجرم القذف حينما شهد في قصة المغيرة بن شعبة مع أم جميل لما كان واليا على البصرة في خلافة عمر .

روي الشعبي عن مسلم عن أبي بكرة عن أبيه بكرة قال :

لما قدم طلحة والزبير البصرة تقلدت سيفي وأنا أريد نصرهما فد خلت على عائشة وإذا هي تأمر وتنهي وإذا الأمر أمرها فذكرت حديثا كنت سمعته عن رسول الله" لن يفلح قوم تدبر أمرهم امرأة"فانصرفت واعتزلتهم.

القصة كما رواها محمد بن جرير الطبري وأبو الفرج علي بن الحسن الاصفهاني بتصرف كالتالي : كان المغيرة يختلف إلى أم جميل، امرأة من بني هلال بن عامر، وكان لها زوج من ثقيف هلك قبل ذلك يقال له الحجاج بن عبيد. وكان المغيرة وهو أمير البصرة يختلف إليها سرا، وكانت جارة لأبي بكرة. فبينما هو مع أخويه نافع وزياد ورجل آخر يسمى شبل بن معبد، وكانت غرفة جارته محادية لغرفته، ضربت الريح باب المرأة ففتحته، فنظر القوم فإذا هم بالمغيرةينكحها. فقال أبو بكرة هذه بلية قد ابتليتم بها،

72- رواه ابن أبي شيبة

فنظروا حتى تثبتوا فنزل أبو بكرة فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة فقال له : أنه قد كان من أمرك ما قد علمت، فاعتزلنا. فذهب المغيرة وجاء ليصلي بالناس الظهر فمنعه أبو بكرة وقال : والله لاتصلي وقد فعلت مافعلت وقال للناس : دعوه فليصل فإنه الأمير واكتبوا إلى عمر فكتبوا إليه. فورد كتابه أن يقدموا عليه جميعا : المغيرة والشهود. فارسل عمر إلى أبي موسى الأشعري قائلا له . إني باعثك إلى الأرض التي قد باض بها الشيطان وفرخ، فألزم تعرف ، ولاتستبد فيستبد الله بك .

فجلس له عمر ودعا به وبالشهود، وتقدم أبو بكرة فقال له : أرأيته بين فخديها، قال : نعم والله لكاني انظر شريح جذري بفخذيها، فقال عمر : لا والله حتى تشهد لقدرأيته يلج فيها كما يلج المرود في المكحلة. قال : نعم أشهد على ذلك. فقال عمر ذهب ربعك. ثم دنا نافع فقال علام تشهد. قال : على مثل شهادة أبي بكرة فقال عمر : لا حتى تشهد أنك رأيته يلج فيها ولوج المرود في المكحلة، فقال : نعم، حتى بلغ قذده فقال ذهب نصفك. ثم دنا الثالث وهو شبل بن معد وقال علام تشهد، فقال : على مثل شهادة صاحبي قال : ذهب ثلاثة أرباعك.

ولم يكن زياد حاضرا ذلك المجلس فأمر عمر أن ينحى الشهود الثلاث ولايجالسهم أحد من أهل المدينة. وانتظر قدوم زياد. فلما قدم سأله عمر، فرتقت عيناه واحمر وجهه وقال : ياأمير المومنين أما أن أحق ماحق القوم فليس عندي، لكني رأيت مجلسا قبيحا وسمعت نفسا حثيثا وانتهار. ورأيته متبطنا، فقال عمر : أرأيته يدخل ويخرج كالميل في المكحلة. قال : لا فقال عمر للمغيرة قم إليهم فاضربهم فضرب المغيرة أبا بكرة ثمانين، وضرب الباقين، ودرأ عمر الحد على المغيرة فكان أبو بكرة وهو يضرب يقول : أشهد أن المغيرة زنى، فهم عمر بضربه فقال له علي : أن ضربته رجمت صاحبك إذ تصبح شهادته شهادتين فيوجب ذلك الرجم على المغيرة.

إذا كان عمر قد برأ المغيرة من جريمة الزنى وجلده بجرم القذف، واعتبره من الصحابة، وترد له في كتب الصحاح والسنن أحاديث كثيرة فلماذا لم تعتبر أحاديثه باطلة وغير صحيحة على رأسها هذا الذي يقصى المرأة من المجتمع ومن تولي المناصب القيادية. كما أن الحديث نفسه والمناسبة التي قيل فيها تجعله لايصلح كقاعدة تشريعية من حيث المتن، فأبو حنيفة من الأئمة الذين ينظرون إلى متن الحديث فيرون إذا كان شاذا أيا كان رواته يقول ابن القيم الجوزية إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه حديث موضوع" [73] .

وهذا الحديث أتى على صيغ مختلفة

"لن يفلح قوم زسندوا أمرهم امرأة[74]

في رواية ابن الاشتر

ماأفلح قوم قيمهم امرأة [75]

كنز العمال

لايقدس الله أمة قادتهم امرأة[76]

في رواية الشيخ الطوسي

لايفلح قوم وليتهم امرأة[77]

---

73 - ابن القيم الجوزية المنار ص 37 - 38

74 - مسند الإمام أحمد ج 5 ص 38

75 - النهاية ج 4 ص 135

76 - كنز العمال ج 6 ص 40

77 - الخلاق ج 3 ص 311

وفي صيغة أخرى يقال (ص)

إن قوما، يخرجون من بعدي في فئة رأسها امرأة لايفلحون أبدا[78]

مايدل على ضعف هذا الحديث وروده بروايات وصيغ مختلفة، وبالتالي فمتنه لايخلو من الكذب. وثبت أنه ليس في تاريخ الفرس مايدل على أنهم ولوا عليهم ابنة كسرى ولا أية امرأة أخرى[79] كما أنه روي في ظرف دقيق وحساس إبان معركة قادتها امرأة ضد علي بن أبي طالب مما لايترك مجالا للشك، أن المراد به هو حبس المرأة عن الحياة العامة وهو ماحدث بالفعل في الدولة الأموية حيث أجبرت على الاختفاء والانزواء في دهاليز البيوت مكتفية بدراسة العلوم الدينية إن كانت من المحظوظات، في عزلة تامة عن المجتمع. ولاشك أن الداهية معاوية تيقن من موقف عائشة الخطير فقاومه بإسدال الستار على المرأة حتى لاتبرز .

78 ـ رواه ابن شيبة : ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج2 ص 81

79 ـ ابراهيم فوزي : تدوي السنة ص 247 . رياض الريس للكتب والنشر ط 2 1995

الفهـــرس

المـراجـع

كـتـب

1 العربية

- ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة، دار النشر الحديثة .
- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، بيروت دار الكتب العلمية .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين ، بيروت دار الفكر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كشاف آثار الجاحظ، الرسائل الكلامية، دار ومكتبة الهلال .
- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام جـ1 .
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين ، الأغاني .
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، بيروت دار الكتب العلمية 1978 جـ 8 .
- د. محمد عمارة ، نظرة جديدة إلى التراث، دار قتيبة 1988 .
- د. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي 1994 .
- د . إبراهيم فوزي ، تدوين السنة ، رياض الريس للكتب والنشر ط 2 1996 .
- د . زكي نجيب محمود، في حياتنا العقلية، دار الشروق 1974 .
- د . محمد إسماعيل سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، محاولة تنظيم ، دار الثقافة المغرب 1980 .
- د . الجابري محمد عابد ، العقل السياسي العري، المركز الثقافي العربي ط2 / 1991 .
- المسعودي أبو الحسين علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر .
- أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج1 .

- تركي علي الربيعوا ، العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي1944 .
- د . خليل أحمد خليل ، نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية.
- أحمد قبيش ، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ، بيروت دار الجيل .
- ذ . ياسين النضير ، قراءة في الحكاية الشعبية ، ألف ليلة وليلة.
- هشام شرابي ، مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، الأهلية للنشر والتوزيع .
- ذ . عبد السلام ياسين ، تنوير المومنات ج 1 و ج 2 ، منشورات الأفق.
- علي بن أبي طالب ، نظرة عصرية جديدة ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر 1974 .
- بوعلي ياسين ، التالوث المحرم ، دار الطليعة بيروت .
- د . هيثم مناع، المرأة في الإسلام ، دار الحداثة 1980 .
- محسن جاسم الموسوي ، ألف ليلة وليلة ونظرة الأدب الإنجليزي .
- د . نقولا زيادة ، عربيات حضارة ولغة، رياض الريس للكتب والنشر 1994 .
- علي مروة ، طرائف النساء والجواري ، رياض الريس للكتب والنشر جـ 5 .
- الميداني ، مجمع الأمثال .
- الإمام حمزة بن الحسن الأصبهاني ، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، تحقيق وتقديم عبد المجيد قطامش .
- د . محمد عمارة مسلمون ثوار ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- د . علي أفرفار ، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، بيروت 1996.
- ذ . علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط 2/ 1976 .

الدوريات

- التراث الشعبي، وزارة الثقافة والإعلام العراقية عدد 2 سنة 11 / 1980 .
- التراث الشعبي ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية عدد 3 سنة 12 / 1983 .
- مجلة اتحاد كتاب المغرب، الثقافة الشعبية، قراءة في أشكال التعبير عدد 55 سنة 1994 .
- مجلة أمل ، حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب، عدد مزدوج 13 و 14 سنة 1998 .

الأجنبية :

- Zakiya Daoud : Féminisme et Politique au Maghreb., edition Eddif 1993 (Maroc)
- Dalenda et Abdelhamid Largueche : Marginales en terre d'Islam, Ceres productions 1992 (Tunis)
- Bouhdiba Abdelwahab, La Suxualité en Islam? Paris , PUF 1975.

صدر للكاتبة

الإسلام والمرأة واقع وآفاق ، أفريقيا الشرق ، 1992

الإسلام والحجاب بين عصر الحريم وتحديات الحضارة ، أفريقيا الشرق ، 1994

الإسلام والمرأة واقع وآفاق ، طبعة ثانية أفريقيا الشرق ،1998

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة ، أفريقيا الشرق ، 1998

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة

هل المرأة الزعيمة، الحاكمة الثائرة، المناضلة الباحثة، تنتمي للتاريخ الحديث؟ إذا كان الجواب بالنفي فلماذا لم تتحدد بعد على الخريطة كشخص له كيان...؟ رغم أن علاقتها بالعمل السياسي والأدبي والاجتماعي عرفت قبل الإسلام وبعده؟!

فالمرأة العربية اليوم تهتم بقضايا مجتمعها السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية وتشارك بفعالية في العمل الاجتماعي، وحجم تواجدها في إيقاع الحياة أكبر، وسيرها نحو التحرر والمساواة ملحوظ، لكن عملها النضالي وتواجدها الفعلي لم يمتد بعد إلى جميع المساحات (...) ولم تتمكن من تأسيس الصلة على قواعد جديدة مع القاعدة العريضة للنساء، ودخول العمل السياسي من بابه كقوة منظمة ضاغطة بل ترضى بولوجها "كضيفة" من كوات معينة بمواصفات وضوابط معينة، وعدد محدود (...) لتجد نفسها في مرحلة الممارسة عاجزة عن الفعل واتخاذ القرار... مما يوضح تعثر حركتها التحررية التي يجب أن تستمد مصداقيتها من خلال قوة نسائية منظمة واعية وضاغطة قادرة على تشكيل الواقع وتنظيمه، بابتكار صيغ حضارية بناءة، عوض الاعتماد على نماذج مستوردة من نضال المرأة في الغرب الرأسمالي الامبريالي مثل اقتصاد بلدها المتخلف (...) مما يجعل مسيرتها تفتقد إلى الجذور، وكل ما يفتقد جذوره يكون عرضة للاندثار والتشتت عند أول هبة ريح. لا أقصد بالجذور أوهام الخصوصية والهوية الثقافية، فالعصر عصر عولمة والانغلاق على الذات لا يجدي..؟!



لوحة الغلاف للفنان

Redon-vers 1904 الحلم-

ردمك



ISBN 9981-25-112-7

9 789981 251120